المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيم الله تعالى في هدايات القرآن الكريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تعظيم الله في قصص الأنبياء عليهم السلام والهدايات القرآنية في ذلك

اسم الباحث

أ.د / محمد بن عبدالعزيز العواجي

أ. د. محمّد بن إبراهيم العواجي

تعظيم اللّه تعالى

في قصص الأنبياء عليهم السّلام
والهدايات القرآنية في ذلك

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، بلغ الرّسالة وأدىٰ الأمانة ونصح الأُمّة وكشف الله به الغمة، تركنا علىٰ بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلىٰ آل بيته وأصحابه ومن سار علىٰ هديه واستنّ بسنَّته إلىٰ يوم الدّين،،

وبعد؛ فالأنبياء صلوات الله عليهم جميعًا بشر من آحاد البشر، اصطفاهم الله بأنّ جعلهم أنبياء وأهَّلهم لذلك بالعلم والمعرفة الصّحيحة، لأنه لا يمكن أن يعُلموا الناس ويرشدوهم إلىٰ الله تعالىٰ بدون تعظيم، وهذا التعظيم الذي تحلَّوا به، مؤيدٌ من عند الله تعالىٰ، إذ لا يُقرِّهم الله علىٰ غير الحقَّ، بل مدحهم وأثنىٰ عليهم بذلك، فلا غرابة أن نقول: إنّ هؤلاء الأنبياء أحقُّ من يقتدىٰ بهم في تعظيم الله.

ولتلك الفئة الذين اصطفاهم الله أنبياء عنايةٌ خاصةٌ من الله تعالىٰ، فالله تعالىٰ هيئهم لحمل وتبليغ رسالته للناس، فتحلوا بكل أنواع التعظيم لله؛ والأخذ بأسبابه.

ولقد فَقُه أنبياء الله ورسله -عليهم الصّلاة والسّلام- هذه المسألة فقهًا عظيمًا، فكانوا يدعون أقوامهم ومن أرسلوا إليهم يدعونهم إلىٰ تعظيم الله -جل وعلا- وإجلاله، تارة بذكر الضد كما فعل نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما قال لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[نوح]، كل ذلك ليلفت انتباههم إلىٰ تعظيم الله -جل وعلا- وإجلاله، وذكر ماله من عظمة وملكوت سبحانه تبارك وتعالىٰ وبحمده.

ولا شك أن تعظيم الله -عزّ وجلّ- من أجل العبادات القلبية التي تظهر آثارها علىٰ الجوارح من خلال المسارعة إلىٰ كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. فلولا وجود نوع تعظيم لله -عزّ وجلّ- في القلب لما صبر الناس علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة.

وعلىٰ قدر تعظيم الله تعالىٰ في القلب يكون إحسان العبادة وإتمامها وإكمالها وإتقانها.

وهذا البحث محاولة لعرض تعظيم الله تعالىٰ عند أنبيائه -عليهم الصّلاة والسّلام- -الذين اعتنىٰ بهم الله تبارك وتعالىٰ، وربَّاهم، وعلمهم، وأهَّلهم لحمل رسالته- وهي محاولة علىٰ وجه الإجمال والتمثيل فقط، مراعاةً لعدم الإطالة، لأن المقصود هو إيصال الفكرة، وعنونته: (**تعظيم الله في قصص الأنبياء عليهم السلام، والهدايات القرآنية في ذلك**). وذلك ضمن مؤتمر: **تعظيم الله تعالىٰ**.

سبب اختيار الموضوع:

- الحاجة الشديدة لمنهج رباني في تعظيم الله -عزّ وجلّ-.
- ربط الأُمة بالقرآن الكريم، والتأسي بسير الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام-.
- إبراز جانب تعظيم الله تعالىٰ المتمثل في قصص أنبيائه في القرآن.
- حاجة الأُمة إلىٰ إحياء تعظيم الله في كافة شؤونها؛ لتكون منبرًا يخرج أتباعًا وارثين تلك المهمة، وهي نشر تعظيم الله علىٰ الوجه المشروع وتبليغ الرّسالة، وإيصال رحمة الله لخلقه.

منهجية البحث:

المنهجية التي سلكتها في كتابة هذا البحث تتمثل في النقاط التالية:

- عرضت لمواقف الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- مرتبين تاريخيا.
- في كل قصة نقوم بالتعريف بمواقفه المؤثرة في تعظيمه لله، وأسس ووسائل وأساليب التعظيم ثم نتيجة ذلك وفوائده.
- بعض قصص الأنبياء لم أجد فيها مواقف كثيرة فلم ألتزم بذكرهم.
- حاولت الاختصار وعدم التطويل واكتفيت بإبراز مواقف التعظيم المشتهرة عند كل نبي دون تكرارها في قصة غيره.
- محاولة الفهم العميق، والإمعان القوي في نصوص الكتاب والسّنة لاستخراج منهج التعظيم وأساليبه وأنواعه.
- اجتهدت قدر استطاعتي ألا أذكر أمرًا من أمور تعظيم الله عند أنبيائه -عليهم الصّلاة والسّلام- إلاّ وأدلل عليه من القرآن، وما يفسره من السّنة، وأقوال أئمة السّلف. مع الاجتهاد في استنباط أساليب التعظيم.

- اعتمدت علىٰ كتب التفسير بالمأثور خاصة للبحث في معاني الآيات، وعلىٰ كتب التفسير عامة في صياغة البحث ومسائله.
- عزو الآيات المستشهد بها للسورة ورقم الآية عقب كل آية.
- التزمت إيراد الأحاديث الصّحيحة فقط، ولم أستشهد بحديث اتفق علىٰ ضعفه.
- عزو الأحاديث للكتب المسندة، وعرض تصحيح أصحاب الشأن للحديث مالم يكن في البخاري ومسلم أو فيهما.
- التزمت عدم ذكر الخلاف في المسائل الفقهية.

خطة البحث:

يشتمل البحث علىٰ مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة وفهارس.

المقدمة وفي ضمنها: أهمية الموضوع وأهدافه وخطته ومنهج كتابته.

تمهيد في أهمية تعظيم الله، وأثر قصص الأنبياء في تعظيم الله.

المبحث الأول: مواقف من تعظيم الله في قصص آدم ونوح وهودٍ عليهم السلام وهداياتها:

الموقف الأول: تعظيم المعبود سبحانه وتعالىٰ وإظهار أثر أسمائه وصفاته وأفعاله في قصة آدم عليه السلام.

الموقف الثاني: تعظيم معصية الله، وبيان خطرها.

الموقف الثالث: تعظيم أن تنتهك حرماته ومعالجة الذنب بالتوبة لله.

الموقف الرّابع: عرض الأدلة والبراهين التي تدل علىٰ عظمة الله في قصة نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع قومه.

الموقف الخامس: علاج مشكلة الكبر والترف في قصة هود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الموقف السّادس: إرشادهم للحق ونهيهم عن الغيِّ في قصة هود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الموقف السّابع: استعمال أسلوب الوعظ وتكراره في قصتي نوح وهود عليهما الصّلاة والسّلام.

المبحث الثاني: مواقف من تعظيم الله في قصص إبراهيم عليه السلام وهداياتها:

الموقف الأول: الدّعاء والتضرع لله -عزّ وجلّ- مهما كان العمل.

الموقف الثاني: شهود المنّة لله في كل الأحوال تعظيمًا لله.

الموقف الثالث: العمل بالواجب وإشهار ذلك ليكون قدوة في تعظيم الله.

الموقف الرّابع: الحرص والشفقة والرّحمة بالمدعوين تعظيمًا لله.

الموقف الخامس: تعلم التفكر في آيات الله وتدبر القرآن والاعتبار والتأثر الإيجابي.

المبحث الثالث: مواقف من تعظيم الله في قصة لوط عليه السلام مع قومه وهداياتها:

الموقف الأول: تعظيم الذَّنب وبيان خطره علىٰ مرتكبه.

الموقف الثاني: إيجاد البدائل الشرعية عن المحرمات.

الموقف الثالث: الخطب والمواعظ في الميادين العامة.

الموقف الرّابع: الترغيب والترهيب.

الموقف الخامس: الحوار والمناقشة بالحسنىٰ للمخالف والمخطئ.

الموقف السّادس: عدم المداهنة فيما يخالف تعظيم الله بصراحة ووضوح.

الموقف السّابع: التزام الحكمة والموعظة الحسنة في الدّعوة والتعليم والتربية.

المبحث الرّابع: مواقف من تعظيم الله في قصص يعقوب ويوسف عليهما الصّلاة والسّلام وهداياتها:

الموقف الأول: المسامحة والعفو.

الموقف الثاني: حسن التوكل والتذكير بالله.

الموقف الثالث: ترك الدّنيا وإيثار الأشد تعظيما لحرمات الله.

الموقف الرّابع: الحرص علىٰ مصلحة الأفراد وصلاحهم في الدّنيا والآخرة.

الموقف الخامس: اغتنام الفُرص.

المبحث الخامس: مواقف من تعظيم الله في قصص موسىٰ وهارون عليهما الصّلاة والسّلام وهداياتها:

الموقف الأول: استعمال القول اللين.

الموقف الثاني: الحوار والمناقشة بالحسنىٰ للمخالف والمخطئ.

الموقف الثالث: شدة تعظيم الله سبحانه وتعالىٰ.

المبحث السّادس: مواقف من تعظيم الله في قصص خاتم الأنبياء محمد ﷺ وهداياتها:

الموقف الأول: التوحيد وتطبيقاته.

الموقف الثاني: التقوىٰ جماع الخير.

الموقف الثالث: عبادة التسبيح والحمد.

الموقف الرّابع: حسن التوكل.

الموقف الخامس: حسن الخُلق.

الموقف السّادس: رفع ذكر النَّبيّ ﷺ خصوصا والأنبياء عموما.

الخاتمة

ثبت المراجع

فهرس الموضوعات

والله سبحانه أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله حجة لنا لا علينا، وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصّالح، وأن يجبر تقصيري في هذا البحث، وأن يغفر ما كان فيه من خط وزلل، وأن يبارك فيه.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدّين.

كتبه/ أ.د. محمد بن عبد العزيز بن محمد العواجي

الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية القرآن الكريم والدّراسات الإسلامية

الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

تمهيد في أهمية تعظيم الله، وأثر قصص الأنبياء في تعظيم الله

إن تعظيم الله تعالىٰ وتعظيم ما يستلزم ذلك من شعائر الله تعالىٰ وحدوده من أجلّ العبادات القلبية وأهم أعمال القلوب، التي يتعين تحقيقها والقيام بها، وتربية الناس عليها، وبالذات في هذا الزمان الذي ظهر فيه ما يخالف تعظيم الله تعالىٰ من الاستخفاف والاستهزاء بشعائر الله تعالىٰ، والتسفيه والازدراء لدين الله تعالىٰ وأهله. إنّ الإيمان بالله تعالىٰ مبني علىٰ التعظيم والإجلال له -عزّ وجلّ-، قال الله تعالىٰ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]. قال الضحاك بن مزاحم في تفسير الآية: «يتشققن من عظمة الله -عزّ وجلّ-»[(١)].

قال ابن القيّم عن منزلة التعظيم: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الرّبّ تعالىٰ في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإجلالًا، وقد ذم الله تعالىٰ من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته، قال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح]، قال ابن عباس ومجاهد: «لا ترجون لله عظمة»، وقال سعيد بن جبير: «ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته»، وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلىٰ أحدهما عن الآخر فسدت»[(٢)]. وبالجملة يجب تعظيم شعائر الله تعالىٰ جميعها، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج].

كان رسول الله ﷺ يسلك في دعوته الناس أساليب شتىٰ، ومن ذلك ذكر القصص الواقعية الصّحيحة؛ فقد **كان رسول الله ﷺ يذكر لأمته من قصص الأمم السّابقة ما يكون فيه عبرة لمن يعتبر، وذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقىٰ السّمع وهو شهيد**، ذلك أن لذكر القصص الواقعية أثرًا لا ينكر، وسلطانًا بالغًا علىٰ النفوس. وتعظيم الله -جل وعلا- وإجلاله -تباركت أسماؤه، وجلّ ثناؤه- أمرٌ تقضيه الفطر السّليمة، وجاءت به الشرائع القويمة، وإن الله تبارك وتعالىٰ لا ربّ غيره ولا إله سواه؛ ولذلك كلما ازداد الإنسان بالله علمًا ازداد لله تعظيمًا وإجلالًا، فلما كان الرّسل هم أعظم الناس علمًا بالله -جل وعلا- **كان أولئك المرسلون هم أكثر الخلق وأشد العباد إعظاما وإجلالًا لله تبارك وتعالىٰ**؛ لأنهم يعلمون صفاته العلىٰ وأسماؤه الحسنىٰ، ويعلمون ما لله من سلطة وقوة وجبروت لا تكون لأحد غيره سبحانه

---

(١) العظمة لأبي الشيخ (١/ ٣٤١؛ ٧٤).

(٢) مدارج السّالكين (٢/ ٤٩٥).

وبحمده تبارك اسمه وجل ثناؤه، وهذا التعظيم ورد علىٰ هيئة أمور عدة :

فمن ذلك: قال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، وجاء في حديث ابن مسعود ﷺ: أن حبرًا من أحبار اليهود قدم إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا محمّد! إننا نجد في كتبنا أو في علمنا أن الله -جل وعلا- يجعل السّماوات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبع، وسائر الخلق علىٰ إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك ﷺ حتىٰ بدت نواجذه؛ تقريرًا وتصديقًا لما قاله الحبر اليهودي، فأنزل الله -جل وعلا- قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر].

مفهوم القصة في القرآن الكريم

القصة لغةً:

الخبر، وهو القَصَص، وقصَّ عليَّ خبره يقصه قصا: أورده. ومنه: القص وهو تتبع الأثر، والقَصص: الأثر، والقصص: الأخبار المتتبعة [(١)]. وللقصة معان أُخرىٰ متقاربة، فهي تأتي بمعنىٰ: الخبر، والأمر، والحديث، والجملة من الكلام [(٢)]. والقَصص: الخبر المقصوص -بالفتح- وُضِع موضعَ المصدر حتىٰ صار أغلب عليه، والقِصص -بكسر القاف-: جمع القِصة التي تكتب [(٣)].

فمدلول القصة في اللغة واضح، وواسع، ولكن بعض المُحْدَثين يختار مدلولا للقصة فيه بعض القيود، وهو: الحكاية عن خبرٍ وقع في زمنٍ مضىٰ لا يخلو من عبرة، فيه شيء من التطويل في الأداء[(٤)].

القصة اصطلاحًا:

أما مفهوم القصة في القرآن الكريم قد تتفاوت فيه وجهات النظر، وذلك نظرًا لما في القصة القرآنية من خصائص تميزها عن غيرها؛ من صدقٍ في الواقعية التاريخية، وجاذبيةٍ في العرض والبيان، وشموليةٍ في الموضوع، وعلوٍ في الهدف، وتنوعٍ في المقصد والغرض، ووضوحٍ في الإعجاز

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص٦٧١).
(٢) ينظر: لسان العرب (٧/ ٧٣-٧٤).
(٣) المصدر السّابق.
(٤) بحوث في قصص القرآن (ص٤١).

.[١]

- فمدلول القصة في القرآن الكريم: هو مدلولها اللغوي مضافًا إليه تلك الخصائصُ والسّمَاتُ التي تميز بها القَصص القرآني علىٰ غيره. والله تعالىٰ أعلم.
- وللقصة ألفاظ تداخلها في مدلولها كثيرًا، كـ: النبأ، والخبر، والمَثَل[٢]، ولا يتسع المقام لتفصيل ذلك.

أهمية القصة في القرآن الكريم[٣]:

ورودها منسوبة إلىٰ ربّ العزّة والجلال في قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[يوسف:٣].

أمر الله رسوله ﷺ أن يقص علىٰ الناس ما أوحي إليه ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٦]، فالقصة مَعلم بارز من مَعالم القرآن الكريم لتوضح الحقائق وإزالة الشبهات: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل].

والقَصُّ بالمفهوم العامّ كان من مهمات الرّسل -عليهم الصّلاة والسّلام-: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾[الأنعام: ١٣٠]، وحياة الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- هي محور القصص، وهم موضع القدوة والأسوة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠].

وقصص القرآن **أصدق القصص**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[النساء: ٨٧]، وذلك لتمام مطابقتها علىٰ الواقع وأحسن القصص لقوله تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾[يوسف: ٣]، وذلك لاشتمالها علىٰ أعلىٰ درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنىٰ.

وأنفع القصص؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[يوسف: ١١١]، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وأسلوب القصص: هو أقرب الوسائل التربوية إلىٰ فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيرًا فيه، وذلك لما في هذا الأسلوب من المحاكاة لحالة الإنسان نفسه، فتراه يعيش بكل كيانه

---

(١) الدّعوة إلىٰ الله تعالىٰ (ص١٤٦).
(٢) الدّعوة إلىٰ الله تعالىٰ (ص١٤٥).
(٣) ملخصًا من كتاب الدّعوة إلىٰ الله تعالىٰ (ص: ١٤٣-١٤٤).

في أحداث القصة، وكأنه أحد أفرادها، بل وكأنه هو (بطل القصة) أو (الشاهد فيها)، فيَرَىٰ من خلالها كلٌ من الصّالح والطالح ما في نفسه من أحاسيس، وما في خَلَده من أحاديث، وما يجري حوله من أحداث وحوار.. كل ذلك من خلال تجاوبه مع القصة.. فالقصة لا سيّما إن كانت بأسلوب شيِّق، وبيان رائق= لها من التأثير والجاذبية ما لا تبلغه أيُّ وسيلة أخرىٰ من الوسائل الدّعوية أو التعليمية أو التربوية، فكيف إذا كانت بأسلوب ربانيٍّ معجز، له من الواقعية والصّدق ودقة التصوير، ومِن السّمَاتِ ما ليس لغيره!!

ولذلك «كانت القصة ولا تزال مدخلا طبيعيًّا يدخل منه أصحابُ الرِّسالاتِ والدَّعواتِ، والهداةُ، والقادةُ، إلىٰ الناس وإلىٰ عقولهم وقلوبهم، ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه، من آراءَ، ومعتقداتٍ، وأعمالٍ»[(١)]، ولقد أصبحت الفنون كلها اليوم من وراء القصة [(٢)].

و يتميز القَصَص القرآنيّ عن غيره من سائر القصص بخصائص يعلو بها جلالةً وقداسةً، ويزداد بها بلاغة وإعجازًا، ويعظم بها أهمية وتأثيرًا، وبهذه الخصائص استحق أن يُوسَم بأحسن القصص في قوله تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾. فالغاية الأولىٰ من قصص القرآن الكريم هى **تأملها وأخذ العبرة منها، وتصحيح العقائد والأخلاق، حتىٰ يصلح الفرد والمجتمع**، وليست الغاية قاصرةً علىٰ إمتاع النفوس بسماع قصص مسليّة أو بطولات خيالية، أو إظهارَ براعة أدبية مجردة عن هدف الإصلاح -كما هو الحال في عامة الفنِّ القصصى- وليست الغاية سردًا تاريخيًا جافًا، كما هى مهمة المؤرخين، فالقرآن الكريم بكل ما فيه من قصص وغيرها هو كتاب هداية وعبرة بالدّرجة الأولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

هذا ما يتعلق بأهداف القصص القرآني عمومًا، أما إنْ أردنا تفصيلًا أكثر فإننا سنجد أنفسنا أمام بحر لا ساحل له ولا قرار، حيث إنَّ المتدبر لقصص القرآن الكريم واجدٌ في كل قصة، بل في كل آية، وفي كل كلمة والتفاتة قرآنية، ومن الأهداف والعبر والإشارات واللطائف ما تعجز عنه الالسّن ولا تبلغ مداه الأفهام، وصدق الله العظيم إذ يقول مبيِّنًا تلك الأهداف العظيمة من القصص: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن

---

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه (ص٧).

(٢) المصدر السّابق.

تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ .

وتأمَّلْ كيف جاء لفظ: ﴿عِبْرَةٌ﴾ منكَّرًا ليفيد الشمول والعموم؛ ففى قصصهم عبرة عن كل شىء، وفي كل شىء من قصصهم عبرة.. ولكنْ مَن يستخرجُ تلك الدّرر والجواهر؟!! إلا من آتاه الله عقلا نيِّرًا وقلبًا مبصرًا.. ولذلك جَعَل العبرة في الآية السّابقة قاصرة ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[ق: ٣٧]. والله تعالىٰ أجل وأعلم.

ولما كانت للقصص الواردة في القرآن بهذه الآثار علىٰ المستمع، واختصار التأثير في القدوة والنموذج في قصص الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام-، وواقعية التعظيم لله -عزّ وجلّ- ، وضبطه بين الإفراط والتفريط؛ جاءت الإشارة في هذا البحث إلىٰ نماذج من هذه المواقف العظيمة.

المبحث الأول: مواقف من تعظيم الله
في قصص آدم ونوح وهودٍ ﷺ وهداياتها

الموقف الأول: تعظيم المعبود سبحانه وتعالى، وإظهار أثر أسمائه وصفاته وأفعاله في قصة آدم عليه السلام

ويتجلىٰ ذلك في قصة خلق الله آدمَ وإسجاد ملائكته له، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

قال الله تعالىٰ للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسّرائر، وأعلم أن الخير حاصل بخلق هذا الخليفة. فلو لم يكن في ذلك، إلا أنّ الله تعالىٰ أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصّديقين، والشهداء والصّالحين، ولتظهر آياته للخلق.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: ننزهك من الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك. ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ إياه، فضلًا منك وجودا، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العليم الذي أحاط علمًا بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السّماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم الذي له الحكمة التَّامّة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئًا إلَّا لحكمة: ولا أمر بشيء إلَّا لحكمة. والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقرُّوا، واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنىٰ شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم؛ وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا؛ فلم نشاهده، فإذا كان عالما بالغيب؛ فالشهادة من باب أولىٰ، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات؛ إثبات الكلام لله تعالىٰ؛ وأنه لم يزل متكلما؛ يقول ما شاء؛ ويتكلم بما شاء؛ وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض

المخلوقات والمأمورات فالوجب عليه؛ التسليم؛ واتهام عقله؛ والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة؛ وإحسانه بهم؛ بتعليمهم ما جهلوا؛ وتنبيههم علىٰ ما لم يعلموه. وفضيلة العلم من وجوهٍ؛ منها: أن الله تعرف لملائكته؛ بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم[١].

فعرَّفهم تعالىٰ بنفسه بكمال علمه، وأنه يجب الاعتراف لله بسعة العلم، والحكمة التي من جملتها أنه لا يخلق شيئا عبثا، ولا لغير حكمة، ثم بين لهم علىٰ وجه التفصيل، فخلقه بيده تشريفا له علىٰ جميع المخلوقات[٢].

الموقف الثاني: تعظيم معصية الله وخطرها

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

كان سجود الملائكة لآدم عليه السلام[٣] عبادة وطاعة لله، وقربةً يتقربون بها إليه. وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم[٤]، أراد الله أن يظهر التعظيم والاحترام لآدم من الملائكة ظاهرا وباطنا، فقال للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ احتراما له وتوقيرا وتبجيلا، وعبادة منكم لربكم، وطاعة ومحبة وذُلًّا[٥]. فامتثلوا أمر الله؛ وبادروا كلهم بالسّجود، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ امتنع عن السّجود؛ واستكبر عن أمر الله وعلىٰ آدم، قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]. وهذا الإباء منه والاستكبار؛ نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه؛ فتبيِّنت حينئذ عداوته لله ولآدم وكفره

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن للسعدي (ص٤٩) باختصار.

(٢) تيسير اللطيف المنان للسعدي (ص٣٠٩).

(٣) السّجود يكون علىٰ وجهين: **النوع الأول**: يكون تعظيمًا وتقربًا إلىٰ من سُجِدَ لهُ، وهذا سُجود عبادة ولا يكون إلاَّ لله وحده في جميع الشرائع، **النوع الثاني**: سُجود تحيَّة وتكريم وهذا هو السّجود الذي أَمَر الله الملائكة به لآدم فسجدوا له تكريمًا، وهو منهم عبادة لله سبحانه بطاعتهم له إذْ أمرهم بالسّجود، وأمّا سجود أَبَوَيْ يُوسُف وإخوته له فكذلك هو من سجود التحية والتكريم، وقد كان جائزًا في شريعتهم، وأمّا في الشريعة التي جاء بها خاتم النبيين محمدٌ ﷺ فلا يجوز السّجود فيها لغير الله مطلقًا.

(٤) انظر: جامع البيان (١/ ٣٠١)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١/ ٨٣-٨٤)، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي (١/ ١١٩)، ومعالم التنزيل للبغوي (١/ ٣٥).

(٥) تيسير اللطيف المنان (ص١٧٤).

واستكباره[١]. ولهذا لمَّا جرىٰ من إبليس ما جرىٰ، انحط من مرتبته العالية إلىٰ أسفل السّافلين، فقال الله له: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ أي: من الجنة، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾؛ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم، ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] أي: المهانين الأذلين، جزاء علىٰ كبره وعجبه بالإهانة والذُّلّ[٢].

الموقف الثالث: تعظيم الله أن تنتهك حرماته ومعالجة الذنب بالتوبة لله

قال الله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة].

إن الله جعل هذه القصة لنا معتبرا، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق علىٰ العبد، فكبر إبليس وحسده لآدم صيره إلىٰ ما ترىٰ، وحرص آدم وزوجه حملهما علىٰ تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلىٰ الهلاك، ولكن رحمة الله تكمل الناقص، وتجبر الكسير، وتنجي الهالك، وترفع السّاقط.

وأنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلىٰ التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالصّ، وإنابة صادقة؛ فما قصّ الله علينا صفة توبتهما إلَّا لنقتدي بهما، فنفوز بالسّعادة، وننجو من الهلكة؛ وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان -من تَوعدنا وعزمه الأكيد علىٰ إغوائنا بكل طريق- إلَّا لنستعد لهذا العدو الذي تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة، والله يحبُّ منّا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته، وفعل الأسباب التي يخشىٰ منها الوقوع في شباكه، ومن عمل الحصون من الأوراد الصّحيحة، والأذكار القلبية، والتعوذات المتنوعة، ومن السّلاح المهلك له من صدق الإيمان، وقوة التوكل علىٰ الله، ومراغمته في أعمال الخير، ومقاومة وساوسه والأفكار الرّديئة التي يدفع بها إلىٰ القلب كل وقت بما يضادها، ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصّادقة»[٣].

الموقف الرّابع: عرض الأدلة والبراهين التي تدل على عظمة الله

وذلك بعد الحوار والجدل بينه وبين قومه في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح]. فقد استحقوا التأنيب والتوبيخ بأسلوب حكيم حيث أن «الأطوار

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن للسعدي (ص٤٩).
(٢) تيسير الكريم الرّحمن للسعدي (ص٢٨٤).
(٣) تيسير اللطيف المنان للسعدي (ص٣٢٣-٣٢٤).

دالة علىٰ حكمة الخالق وعلمه وقدرته، فإن تطور الخلق من طور إلىٰ طور، كل ذلك والذات واحدة، فهو دليل علىٰ تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنىٰ التفات الذهن، فكانوا محقوقين بأن يتوصلوا به إلىٰ معرفة عظمة الله وتوقع عقابه، فالأطوار التي يعلمونها دالّة علىٰ رفقه بهم في ذلك التطور، فهذا تعريض بكفرهم النعمة، ولأن الأطوار دالة علىٰ حكمة الخالق وعلمه وقدرته، فإن تطور الخلق من طور النطفة إلىٰ طور الجنين إلىٰ طور خروجه طفلًا إلىٰ طور الصّبا إلىٰ طور بلوغ الأشد إلىٰ طور الشيخوخة وطُروّ الموت علىٰ الحياة وطروّ البِلىٰ علىٰ الأجساد بعد الموت، كل ذلك والذاتُ واحدة، فهو دليل علىٰ تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنىٰ التفات الذهن، فكانوا محقوقين بأن يتوصلوا به إلىٰ معرفة عظمة الله وتوقع عقابه؛ لأن الدّلالة علىٰ ذلك قائمة بأنفسهم، وهل التصرف فيهم بالعقاب والإثابة إلاّ دون التصرف فيهم بالكَون والفساد[1].

الموقف الخامس: علاج مشكلة الكبر والترف

أنعم الله تعالىٰ علىٰ قوم عادٍ بالقوة، فقاموا بصناعة حضارة قال الله عنها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر]. وقد تكبروا بقوتهم في صناعة هذه الحضارة؛ حتىٰ قال الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فُصِّلَت].

إنَّ الحقّ أن يخضع العباد لله، وألا يستكبروا في الأرض، وهم من هم بالقياس إلىٰ عظمة خلق الله. فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق، إنه شعور كاذب يحسه المتكبرون. وينسون: ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، وقد حذرهم هود من الترف والتكبر علىٰ الناس به بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾ [الشعراء]، **فإنّ الكبر والترف مانعٌ من تعظيم الله، بخلاف التواضع ففيه شهود منَّة الله عليهم.**

فقد رأىٰ من قومه تمحّضًا للشغل بأمور دنياهم، وإعراضًا عن الفكر في الآخرة والعمل لها والنظرِ في العاقبة، وإشراكًا مع الله في إلهيته، وانصرافًا عن عبادة الله وحده الذي خلقهم

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠١).

وأَعْمَرهم في الأرض وزادهم قوة علىٰ الأمم، فانصرفت همّاتهم إلىٰ التعاظم والتفاخر واللهو واللعب[١]، **فأنذرهم بعظمة الله، ولكن لم يلقوا لها بالًا فأهلكهم الله.**

الموقف السّادس: إرشادهم للحق ونهيهم عن الغيِّ

قال تعالىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾، فبنوا منازل وقصورًا؛ أي راجين الخلود في الدّنيا، إشارة إلىٰ أن عملهم ذلك، لقصر نظرهم علىٰ الدّنيا والإعجاب بالآثار، والتباهي بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجدّين البصيرين بالعواقب، الصّالحين المصلحين.

فبنائها لا للحاجة إليها، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة. ولهذا أنكر عليهم ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة. واشتغال بما هم في غنىٰ عنه. وبما في الشغف به انصراف عن الجد في العمل، وصرف للأموال في غير ما خلقت له، من النظر للنفس والأهل والدّين[٢].

والعاقل ينبغي له أن يصون أوقاته النفيسة عن العبث الذي لا يكون سبب نجاته، وكيف يليق ذلك بمن الموت من ورائه[٣]، فهو توجيه إلىٰ أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة، «فكل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة؛ فهو عبث ولهو باطل[٤]. فالبناء والأبهة إمَّا أن يكون دليلًا لعظمة الله فيؤول إلىٰ شُهود المنَّة والقيام بالشكر؛ فهو خيرٌ علىٰ خيرٍ. وإمَّا أن يؤول إلىٰ الفخر والخيلاء والكبرياء ونسيان المنعم المتفضل! فيكون نهايته الهلاك؛ لإخلال العبد بتعظيم الله. وهذا حال الرّسل -عليهم الصّلاة والسّلام- مع أقوامهم جميعًا في مواقف كثيرةٍ يطول استقصاؤها.

الموقف السّابع: استعمال أسلوب الوعظ وتكراره في قصتي نوح وهود عليهما الصّلاة والسّلام

ومقام الموعظة أوسع من مقام تغيير المنكر، فموعظة هود عليه السلام متوجهة إلىٰ ما في نفوسهم من الأدواء الرّوحية، وليس في موعظته أمر بتغيير ما بنَوه من العلامات ولا ما اتخذوه من المصانع[٥].

وما من نبيٍ أو رسولٍ إلاَّ ووعظ قومه، وحذَّرهم، وكرر ذلك عليهم؛ حتىٰ اتَّهموه

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٥).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٤٦٧) بتصرف يسير.

(٣) نظم الدّرر للبقاعي (٥/ ٣٧٨).

(٤) تفسير ابن باديس في مجالسّ التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص٣٣٩).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٦).

بالجنون، وكادوا له المكائد، ولكن الله يأبىٰ إلاَّ أن يُتمَّ نوره.

فإن الله تعالىٰ بحكمته قصَّ علينا نبأ الأمم المجاورين لنا لنعتبر بهم حين تذكرهم، وبما نتناقله جيلا بعد جيل من خبرهم، وبما نشاهد من آثارهم، أو نمر به من ديارهم، أو نفهم من لغاتهم وطبائعهم، **فإنَّ تذكير الناس بما هو أقرب إلىٰ عقولهم، وأنسب لأحوالهم، وأدخل في مداركهم؛ أولىٰ من غيره**، وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ هذا في آخر قصة عاد فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف][1].

(١) تيسير اللطيف المنان (ص١٩٣).

المبحث الثاني: مواقف من تعظيم الله
في قصص الخليل إبراهيم عليه السلام وهداياتها

الموقف الأول: الدّعاء والتضرع لله -عزّ وجلّ- مهما كان العمل

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة]. ففي الآية أدب الدّعاء والتواضع لله تعالىٰ: فقوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي: عاملنا بفضلك، ولا ترده علينا؛ إشعارًا بالاعتراف بالتقصير؛ لحقارة العبد -وإن اجتهد- في جنب عظمة مولاه[1].

إنّه استحضارٌ لهذا الأمر ليقتدي الناس به في إتيان الطاعات الشاقة، مع الابتهال في قبولها، وليعلموا عظمة البيت المبني، فيُعَظِّموه[2]. إنَّ هذا الدّعاء استتابة لما فرط من التقصير. فإنَّ العبد، وإن اجتهد في طاعة ربِّه، فإنه لا ينفكّ عن التقصير من بعض الوجوه، إمّا علىٰ سبيل السّهو والنِّسيان، أو علىٰ سبيل ترك الأولىٰ، فالدّعاء منهما -عليهما السّلام- لأجل ذلك[3].

والمشاعر ومواضع الأنساك من جملة الحِكَم فيها:

- أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم، وإيمان بالله ورسله، وحث علىٰ الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدّينية وكل أحوال الرّسل دينية، لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[البقرة: ١٢٥].
- الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس، ومن جميع المعاصي القولية والفعلية؛ تعظيما لله وإعانة وتنشيطا للمتعبدين فيه، ومثله بقية المساجد لقوله -عزّ وجلّ-: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[الحج: ٢٦].

الموقف الثاني: شهود المنّة لله في كل الأحوال تعظيمًا لله

إنَّ الجمع بين الدّعاء لله بمصالح الدّنيا والدّين من سبيل أنبياء الله، والسّعي في تحصيل الدّين هو الأصل والمقصود الذي خلق له الخلق، والدّنيا وسيلةٌ ومعونةٌ عليه؛ لدعاء الخليل

---

(١) نظم الدّرر (١/ ٢٤٢).

(٢) روح المعاني (١/ ٣٨٣).

(٣) محاسن التأويل (١/ ٣٩٨).

لأهل البيت الحرام بالأمرين، وتعليله الدّعاء بالأمور الدّنيوية لأنها وسيلة الشكر؛ فقال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ومنه: التَّرغيب في أن يكون أهل الإنسان ومن يتولَّىٰ شؤون بيته حازمين مستعدين لكلّ ما يراد منهم من الشُّؤون والقيام بمهمات البيت، فإنَّ إبراهيم في الحال بادر إلىٰ أهله فوجد طعام ضيوفه حاضرًا لا يُحْوِج إلَّا إلىٰ تقديمه.

الموقف الثالث: العمل بالواجب وإشهار ذلك ليكون قدوة في تعظيم الله

إنَّ من فوائد قصة بناء الكعبة: أنّ العامل -كما عليه أن يتقن عمله ويجتهد في إيقاعه علىٰ أكمل الوجوه- فعليه مع ذلك أن يكون بين الخوف والرّجاء، وأن يتضرع إلىٰ ربه في قبوله وتكميل نقصه، والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت، وهما بهذا الوصف الكامل.

وممَّا اشتملت عليه قصة إبراهيم: مشروعية الضيافة وآدابها، فإنَّ الله أخبر عن ضيفه أنهم مكرمون، يعني: أنهم كرماء علىٰ الله، وأيضا إبراهيم أكرمهم بضيافته قولا وفعلا، فإكرام الضيف من الإيمان، وأنه خدمهم بنفسه وبادر بضيافتهم قبل كل شيء، وأتىٰ بأطيب ماله: عجل حنيذ سمين، وقرَّبه إليهم ولم يحوجهم إلىٰ الذهاب إلىٰ عمل آخر، وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال: ألا تأكلون؟[1].

وفيما ذكره في قصّة نوح وإبراهيم وموسىٰ وهارون وإلياس: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾ [الصافات]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾، يتبعها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾ [الصافات]. فوعد الباري أنّ كلّ محسن في عبادته محسنٌ إلىٰ عباده أن الله يجزيه الثّناء الحسن والدّعاء من العالمين بحسب إحسانه، وهذا ثوابٌ عاجلٌ وآجلٌ، وهو من البُشرىٰ في الحياة الدّنيا، ومن علامات السّعادة[2].

الموقف الرّابع: الحرص والشفقة والرّحمة بالمدعوين تعظيمًا لله

مشروعية السّلام، وأن المبتدئ فيه هو الدّاخل وهو الماشي، وأنه يجب رده، ومشروعية الوقوف علىٰ اسم من يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف لقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾

(١) تيسير اللطيف المنان (ص٣٧٦) باختصار .
(٢) تيسير اللطيف المنان (ص٣٧٨).

[الذاريات: ٢٥]. أي لا أعرفكم فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، وهذا ألطف من قوله أنكرتكم ونحوه. ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود] فالخليل عليه السلام حريصٌ علىٰ الدّعوة، وصلاح القوم -رغم عنادهم وتكذيبهم-، ولكن إذا جاء أمر الله فلا مرد له، ولذا وصفه الله بهذا الوصف الجميل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

وأفضل الوصايا علىٰ الإطلاق ما وصَّىٰ به إبراهيم بنيه ويعقوبُ، وهو الوصية بملازمة القيام بالدّين، وتقوىٰ الله، والاجتماع علىٰ ذلك. وهي وصيته تعالىٰ للأوَّلين والآخِرين؛ إذ بها السّعادة الأبدية، والسّلامة من شرور الدّنيا والآخرة.

الموقف الخامس: تعلم التفكر في آيات الله والاعتبار والتأثر الإيجابي

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام].

والمعنىٰ: كما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الأصنام نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فلهذا السّبب عبر عن هذه الرّؤية بلفظ المستقبل في قوله: ﴿نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ لأنه تعالىٰ كان أراه بعين البصيرة أن أباه وقومه علىٰ غير الحق فخالفهم فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فحسنت هذه العبارة لهذا المعنىٰ[1].

وفي هذا إشارة إلىٰ حجّة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات علىٰ وجود صانعها.

والرّؤية هنا مستعملة للانكشاف والمعرفة، فالإراءة بمعنىٰ الكشف والتعريف، فتشمل المبصرات والمعقولات المستدلّ بجميعها علىٰ الحقِّ، وهي إراءة إلهام وتوفيق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ابتدأ في أوّل أمره بالإلهام إلىٰ الحقّ، كما ابتدأ رسول الله ﷺ بالرّؤية الصّادقة. ويجوز أن يكون المراد بالإراءة العلم بطريق الوحي.

وقد حصلت هذه الإراءة في الماضي، فحكاها القرآن بصيغة المضارع لاستحضار تلك الإراءة العجيبة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: ٩].

---

(١) لباب التأويل (٢/ ٤٠٨).

وإضـــافة ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ علىٰ معنىٰ [في]، والمعنىٰ: ما يشـــمله المِلك أو المُـــلك، والمُراد: مُلك الله. والمعنىٰ: نَكْشِف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا أو عظمة سلطاننا كشفًا يطلعه علىٰ حقائقها، ومعرفة أن لا خالق ولا متصرّف فيما كشفنا له سوانا[1].

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٤٩٧).

المبحث الثالث: مواقف من تعظيم الله في قصة لوط عليه السلام مع قومه وهداياتها

الموقف الأول: تعظيم الذَّنب وبيان خطره على مرتكبه

قال تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف]، أي: أتأتون هذه الخصلة الفاحشة الخسيسة المتمادية في الفحش والقبح وهي أدبار الرّجال، قاله ابن عباس، قال ذلك إنكارًا عليهم وتوبيخًا لهم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: لم يفعلها أحد من قبلكم، فإنَّ اللِّواط لم يكن في أمة من الأمم قبل هذه الأمة[1]، وفي ذلك التوبيخ وتعظيم الذَّنب وبيان خطره علىٰ مرتكبه.

الموقف الثاني: إيجاد البدائل الشرعية عن المحرمات

وهذا أسلوب يغفل عنه بعض الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ، فتجده ليس عنده إلا إنذار الناس عن ما حرم الله فقط -وهذا بلا شك مطلوب، بل وواجب- ولكن لا بد من إظهار أن الله إذا حرم شيئًا جعل له بديلًا طيّبًا، فقد اتَّخذ لوطٌ عليه السلام مع قومه هذا الأسلوب ليحببهم فيما أباحه الله لهم، وليلفت أنظارهم أنَّ هذا المباح يسهل الحصول عليه، وهو الأطهر والأوفق لفطرهم التي فُطروا عليها، وليصرفهم عن ما هم فيه من شهوات مهلكات بهذا الحلال الطيِّب، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود].

الموقف الثالث: إلقاء الخُطب والمواعظ في الميادين العامة

فقد كان عليه السلام يخرج لقومه في مجالسهم وميادينهم، فيعظهم ويذكرهم بالله تعالىٰ، رغم ما كان يلاقيه من أذىٰ وعناد منهم، قال تعالىٰ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ

---

(١) فتحُ البيان في مقاصد القرآن (٤/ ٢٠٤).

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت].

الموقف الرابع: الترغيب والترهيب

قال تعالىٰ: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود]، فهو ترغيب لهم في الرُّشد لما رآهم مقدمون علىٰ أضيافهم، فذكَّرهم أن امتناعهم عن هذا المنكر فيه الرُّشد والصَّلاح في الدُّنيا والآخرة، ولكنَّه عليه السلام لما رأىٰ إصرارهم تماديهم في باطلهم وغيهم؛ خوَّفهم بأنَّه لو يستطيع أن يعاقبهم بعذاب شديد لفعل، من شدّة إعراضهم، وانغماسهم في شهواتهم العفنة، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠].

الموقف الخامس: توجيه المخالف والمخطئ بالحسنى

وتجلّىٰ ذلك في صورٍ متعددةٍ، أهمها:

١- **الحوار والمناقشة:** قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود]، فهذا الحوار الدائر بين لوط عليه السلام وقومه، يبيِّن لنا كيف كان عليه السلام دائم الحديث والمناقشة مع قومه، وكيف أنه كان يحاورهم ويناقشهم رجاء أن يقتنعوا بكلامه ويؤمنوا بما أُنزل إليه من عند الله تبارك وتعالىٰ، ورجاءً منه عليه السلام كذلك أن يمتنعوا عن رغباتهم الشهوانية الحيوانية المحرمة، من خلال حواره الهادئ المقنع، لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

٢- **أسلوب الاستفهام الاستنكاري:** قال تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل]، فهذه الأسئلة من لوط عليه السلام لقومه، هي استنكارٌ لفعلهم، ولشنيع صنيعهم، وأن ذلك يجلب الاحتقار لهم؛ وهم علىٰ هذه الفواحش، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: فليس هناك إنسانٌ سَويّ يستطيع أن يفعل فعلكم هذا!

الموقف السادس: عدم المداهنة فيما يخالف تعظيم الله بصراحة ووضوح

وتجلّىٰ ذلك في صورٍ متعددةٍ، أهمّها:

١- **إعلان البراءة من عملهم**: قال تعالىٰ عن لوط عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الشعراء: ١٦٨]، يقول لهم لوط عليه السلام: إنِّي لعملكم الذي تعملونه من إتيان الذُّكران في أدبارهم من القالين، يعني: من المبغضين، المنكرين فعله[(١)]، أي: فأنا أرغب في الخروج عن دياركم، والرّاحة من مجاورتكم، لبغضي لعملكم، الآيل بكم إلىٰ الدَّمار وخراب الدِّيار. ولذا أتبعه بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء]، أي من شؤمه وغائلته[(٢)]. فالقِلىٰ: الكره البالغ. يقذف به لوطٌ عليه السلام في وجوههم في اشمئزاز.

٢- **الهجرة**: لمَّا علم لوط عليه السلام بأنَّ العذاب نازلٌ لا محالة علىٰ قومه، لتكذيبهم به، وإعراضهم عنه؛ أمره الله -تبارك وتعالىٰ- بترك أرض قومه والهجرة إلىٰ مكان نقي، يخلوا من هؤلاء الفُسّاق، لينجو بمن معه ممَّن آمن به واتبعه من عذاب الله الذي سيقع بقومه، قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود]، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحِجر].

الموقف السابع: التزام الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة والتعليم والتربية

وهذا يظهر جليًّا في جميع حوارات لوط عليه السلام مع قومه كما مرت معنا في الآيات، حيث كان يتعامل بحكمة بالغة، لكل موقف مقاله ومناسبته، فتجده في وقت اللِّين يلين معهم، وفي موقف الشدة يشتد معهم في الخطاب، وفي موقف الإنذار والتحذير يعطيه ما يناسبه، مع موعظته لهم بالحسنىٰ عند إيجاد الفرص السانحة لذلك، وهذا بلا شك من حكمة الداعي إلىٰ الله، بأن يعطي لكل موقف ومقال مقاله اللازم له بحكمة وحسن تدبير. وهكذا كانت حوارات الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- مع أقوامهم، وفي دعوتهم لهم، وتعليمهم إياهم، وتزكيتهم لهم، ومعالجة أخطائهم وخطاياهم.

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٣٨٩).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٤٧١).

المبحث الرّابع: مواقف من تعظيم الله
في قصص يعقوب ويوسف -عليهما الصّلاة والسّلام- وهداياتها

الموقف الأول: المسامحة والعفو

قال الله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف]، أي: قال يعقوب: سوف أسأل ربى أن يعفو عنكم ذنوبكم التى أذنبتموها فيّ وفىٰ يوسف[1]. ورجائى به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخَّر الاستغفار لهم إلىٰ وقت السّحر الفاضل، ليكون أتمَّ للاستغفار، وأقرب للإجابة[2]. وأراد أن يُنبِّههم إلىٰ عظم الذّنب، وعظمة الله تعالىٰ، وأنّه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة[3]. وكان هذا من أبيهم يعقوب عليه السلام.

ومن يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[يوسف]، أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا علىٰ إيصال الأذىٰ إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالىٰ ومكنك ممّا تريد ﴿وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾ وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم علىٰ يوسف. فقال لهم يوسف عليه السلام كرمًا وجودًا: لا أثرب عليكم، ولا ألومكم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فسمح لهم سماحًا تامًّا، من غير تعيير لهم علىٰ ذكر الذّنب السّابق، ودعا لهم بالمغفرة والرّحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتّىٰ إلَّا من خواصِّ الخلق، وخيار المصطفين[4].

الموقف الثاني: حسن التوكل والتذكير بالله:

وكان ذلك جليًّا في القصّة كلّها، ونكتفي بمواقف منها، كموقف فقده ليوسف عليه السلام، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[يوسف: ١٨]. وموقف طلبهم صحبة أخيه لهم: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٦١).

(٢) تيسير الكريم الرّحمن (ص٤٠٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٥٤).

(٤) تيسير الكريم الرّحمن (ص٤٠٤-٤٠٥) باختصار يسير.

أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ [يوسف]، وموقف وصيته لهم قبل الرّحلة: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ [يوسف]، وموقف فجيعته بأخيه ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ [يوسف]، وموقف وصيته لبنيه بالبحث عن يوسف عليه السلام وأخيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ [يوسف].

الموقف الثالث: ترك الدّنيا وإيثار الأشد تعظيما لحرمات الله

قال تعالىٰ: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ [يوسف].

قالت له بحضرتهنّ؛ لتلجئه بهذا الوعيد إلىٰ حصول مقصدها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربِّه، واستعان به علىٰ كيدهنّ، وهذا يدّل علىٰ أنّ النّسوة جعلن يشرن علىٰ يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه في ذلك. فاستحبَّ السّجن والعذاب الدّنيوي علىٰ لذّة حاضرة توجب العذاب الشّديد، فإنّ العلم والعقل يدعو إلىٰ تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللّذّتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة. فهذا ما نجّىٰ الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة[1].

وفي هذا الحذر من شؤم الذّنوب، فكم من ذنب واحد استتبع ذنوبًا كثيرة، وتسلسل الشَّرُّ المؤسس علىٰ الذّنب الأوّل، وانظر إلىٰ جرم إخوة يوسف، فإنهم أرادوا التّفريق بينه وبين أبيه الذي هو من أعظم الجرائم؛ احتالوا علىٰ ذلك بعدّة حيل، وكذبوا عدّة مرّات، وزوّروا علىٰ أبيهم في القميص والدّم الذي فيه، وفي صفة حالهم حين أتوا عِشاءً يبكون، ولا بد أنَّ الكلام في هذه القضية تسلسل وتشعب، بل ربما أنّه اتصل إلىٰ الاجتماع بيوسف، وكلّما بحث في هذا

(١) تيسير الكريم الرّحمن (ص٣٩٧).

الموضوع فهو بحث كذب وزور مع استمرار أثر المصيبة علىٰ يعقوب، بل وعلىٰ يوسف، فليحذر العبد من الذُّنوب، خصوصًا الذُّنوب المتسلسلة، وضدّ ذلك بعض الطَّاعات تكون طاعة واحدة، ولكن يتسلسل نفعها وبركتها حتىٰ تستتبع طاعات من الفاعل وغيره، وهذا من أعظم آثار بركة الله للعبد في علمه وعمله[1].

الموقف الرّابع: الحرص على مصلحة الأفراد وصلاحهم في الدّنيا والآخرة

إنّ الوصول إلىٰ النّاس وإلىٰ قلوبهم ينبغي أن يكون مدخله النَّظر في مصالحهم وخدمتهم، فاتَّخذ يوسف عليه السلام الحُكمَ، وتأويلَ الرُّؤيا، وعلمَه بها، طريقًا إلىٰ الدّعوة للتوحيد، حيث قال للسَّجينين: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف]، وفي هذا حسن النظر في مصالح الناس قبل دعوتهم.

وسأل يوسف عليه السلام منصب حافظ خزائن مصر؛ كما دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]، وذلك ليحفظها من الضَّياع؛ وقد كان النَّاس مقبلين علىٰ سبع سنين شداد؛ وكذا ليتوصل بذلك إلىٰ نشر العدل ورفع الظّلم؛ ويتوسل به إلىٰ دعاء أهل مصر إلىٰ الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان [2].

ومن هنا تحدَّث العلماء حول جواز طلب المرء الولاية لنفسه إن علم أنَّه كفءٌ لها، ولا يوجد غيره، وليتوسل بها إلىٰ تبليغ الدّعوة وتحقيق العدل.

وتجلَّىٰ ذلك في حواره مع صاحبي السّجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف].

---

(١) تيسير اللطيف المنان (ص٢٧٥).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان (٦/ ٣٥٦).

الموقف الخامس: اغتنام الفرص

من فطنة الدّاعي وذكائه استغلال الفرص لتبليغ الدّعوة، وهذا من أهم أساليب الدّعوة التي ينبغي الحرص عليها، فإن يوسف عليه السلام حين طلب منه صاحباه في السّجن أن يعبر رؤياهما وبدت له حاجتهما إليه؛ قصد أن يدعوهما إلىٰ الإيمان في هذه الحال؛ ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأنّ نفوسهما معظِّمة له، منبعثةً علىٰ تلَّقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلىٰ ما هو الأنفع لهما ممّا سألا عنه، وطلبا منه»[2].

(١) تيسير الكريم الرّحمن (ص ٣٩٧).
(٢) البداية والنهاية (١/ ٢٠٧).

المبحث الخامس: مواقف من تعظيم الله
في قصص موسى وهارون -عليهما الصّلاة والسّلام- وهداياتها

الموقف الأول: استعمال القول اللين

فقد أمر الله تعالىٰ موسىٰ وهارون -عليهما السّلام- أمرًا مباشرًا باللِّين في الدّعوة، بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[طه]، فإنَّ الملوك الظّالمين أمثال فرعون لا يقبلون إلّا ليِّن الكلام معهم. فأمرهما بما ينبغي لكلّ آمر بالمعروف من الأخذ بالأحسن فالأحسن، والأسهل فالأسهل[1]، لِما كان اللِّين سببًا للتّذكرة والخشية أمرهما به لتقوم عليه الحجّة، فهذا الرَّجاء المتعلق بكلامه. فالكلام المنفِّر لا يُتوقَّع منه إجابة ولا إنابة، والكلام اللِّين المُرَغَّب يُتوقَّع من كلّ مَن سمعه الإجابة والإنابة[2].

والمقصود من دعوة الرّسل حصول الاهتداء، لا إظهار العظمة، وغلظة القول بدون جدوىٰ. فإذا لم ينفع اللِّين مع المدعوّ، وأعرض واستكبر؛ جاز في موعظته الإغلاظ معه[3]، تعظيمًا لله، ولأمر الله، لا غير.

الموقف الثاني: الحوار والمناقشة بالحسنى للمخالف والمخطئ

وصف الله مشهد الحوار والمناقشة بين موسىٰ عليه السلام مع فرعون وملئه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ الآيات إلىٰ قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾، ثم ختمها بقوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه].

فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرّب علىٰ الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قُدِّر أنَّ الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لربِّ العالمين أكبر من ذلك. ولهذا؛ لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدّليل القاطع، عدل إلىٰ المشاغبة، وحاد عن المقصود. فلا معنىٰ لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمّة قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، فإن كان الدّليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناكها، قد تحقّقت صدقها ويقينها؛

---

(١) نظم الدّرر (٥/ ٢٠).

(٢) الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان للإمام ابن القيم الجوزية (ص٦٢) باختصار.

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٥).

وهو الواقع، فانقد إلىٰ الحقّ، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوحٌ وباب البحث غير مغلق، فرُدّ الدّليل بالدّليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلًا ما دام الملوان. كيف وقد أخبر الله عنه، أنّه جحدها مع استيقانها! فعُلم أنّه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض[1].

وكذلك حوار موسىٰ عليه السلام مع بني إسرائيل -وهو كثير في القرآن- وحواره مع السّامري، وفي تلك الحوارات آدابٌ وقيمٌ وأخلاقٌ عظيمةٌ لا ينقضي منها عجبك إلاَّ إذا علمت تأييد الله لهم بالوحي والتزكية.

الموقف الثالث: شدة تعظيم الله سبحانه وتعالى:

فقد دأب موسىٰ وأخوه هارون عليهما السّلام علىٰ تعظيم الذَّنب، وبيان خطره علىٰ مرتكبه والتوبيخ علىٰ فعله تعظيمًا لله تعالىٰ، وتجلىٰ ذلك واضحًا في مواقف متعددة، منها: موقفهما مع جدال فرعون وملئه وعنادهم، ومع السّامري لما صنع العجل وعبده بنو إسرائيل، ومع قومهم لما أمرهم الله بدخول الأرض المقدّسة، ومع السّبعين لمّا سألوا رؤية الله، ومع قومهم لمّا سألوا البصل والثّوم، ولمّا قتلوا القتيل، ولمّا تمنَّعوا من ذبح البقرة .. الخ.

ولتتصور التّعظيم عند موسىٰ عليه السلام تدبَّر قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ الآيات إلىٰ قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ [الأعراف].

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن (ص٥٠٦-٥٠٧).

المبحث السّادس: مواقف من تعظيم الله
في قصص خاتم الأنبياء محمد ﷺ وهداياتها

الموقف الأول: التوحيد وتطبيقاته

قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزّمل].

قال الرّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمّا ثبت أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لزمك أن تتخذه وكيلًا، وأن تفوِّض كلّ أمورك إليه. وهنا مقامٌ عظيمٌ، فإنّه لمّا كانت معرفة أنَّه لا إله إلَّا هو توجب تفويض كلِّ الأمور إليه= دلَّ هذا علىٰ أنَّ مَن لا يفوِّض كلَّ الأمور إليه؛ فإنَّه غير عالم بحقيقة لا إله إلَّا هو»[1].

وقال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلَّا وجهه الأعلىٰ الذي يستحق أن يُخصّ بالمحبة والتَّعظيم، والإجلال والتَّكريم، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: حافظًا ومُدَبِّرًا لأمورك كلِّها»[2].

ويقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ [الفرقان].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتوكل يا محمَّد علىٰ الذي له الحياة الدّائمة التي لا موتَ معها، فثق به في أمر ربِّك، وفوّض إليه، واستسلم له»[3].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في أمورك كلِّها كُن متوكِّلًا علىٰ الله الحي الذي لا يموت أبدًا، الدّائم الباقي السَّرمدي الأبدي، الحي القيوم ربّ كلِّ شيء ومليكه، اجعله ذُخْرك وملجأك، وهو الذي يُتَوكَّل عليه، ويُفْزَع إليه، فإنَّه كافيك وناصرك ومؤيِّدك ومُظفرك»[4].

والتَّوكُّل: الاعتماد وإسلام الأمور إلىٰ المُتوكَّل عليه، وهو الله، و﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾: هو الله تعالىٰ. وعدل عن اسم الجلالة إلىٰ هذين الوصفين لِما يُؤذِن به من تعليل الأمر بالتَّوكُّل عليه؛ لأنَّه الدّائم، فيفيد ذلك معنىٰ حصر التَّوكُّل في الكون عليه، فالتَّعريف في ﴿ٱلْحَيِّ﴾ للكامل،

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٣٠/ ١٩٥).
(٢) تيسير الكريم الرّحمن (٨٩٢).
(٣) جامع البيان (١٩/ ٢٨٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١١٩).

أي: الكامل حياته؛ لأنها واجبة باقية مستمرّة، وحياة غيره مُعرَّضة للزَّوال بالموت، ومُعرَّضة لاختلال أثرها بالذُّهول كالنَّوم ونحوه، فإنَّه من جنس الموت. فالتَّوكُّل علىٰ غيره مُعرَّض للاختلال وللانخرام[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١، والأحزاب: ٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: كفىٰ به وليًّا وناصرًا ومعينًا لمن توكَّل عليه وأناب إليه»[٢]. أي: اعتمد عليه في كلّ أحوالك، فهو الذي يمنعك، فلا يضرّك مَن خذلك، وهو كافٍ لك ما تخافه من المشركين والمنافقين[٣].

وقال السّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تُوكَلُ إليه الأمور، فيقوم بها، وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيثُ لا يعلم العبدُ، وقدرته علىٰ إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنّه أرحم بعبده من نفسه ومن والدّيه، وأرأف به من كلّ أحد، خصوصًا خواصّ عبيده الذين لم يزل يربِّيهم ببِرِّه، ويُدِرُّ عليهم بركاته الظَّاهرة والباطنة، خصوصًا وقد أمره بإلقاء أموره إليه، ووعده. فهناك لا تسأل عن كلِّ أمر يتيسَّر، وصعب يَسْهُل، وخطوب تَهُون، وكروب تزُول، وأحوال وحوائج تُقضىٰ، وبركات تَنزل، ونقم تُدْفَع، وشرور تُرفَع. وهناك ترىٰ العبد الضَّعيف الذي فوَّض أمره لسيده، قد قام بأمور لا تقوم بها أمّة من النَّاس، وقد سهَّل الله عليه ما كان يصعب علىٰ فحول الرّجال، وبالله المستعان»[٤].

والتَّوكُّل عليه وحده، هو القاعدة الثَّابتة المطمئنة التي يفيء إليها القلب؛ فيعرف عندها حدودَه، وينتهي إليها؛ ويدع ما وراءها لصاحب الأمر والتَّدبير، في ثقةٍ وفي طمأنينةٍ وفي يقين.

وقد رتَّب سبحانه العِزَّة والرّحمة لمن توكَّل عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء]. قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ في نقمته من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمن أناب إليه،

---

(١) التحرير والتنوير (١٩ / ٨٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٦٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١١٦).
(٤) تيسير الكريم الرّحمن (٦٧٥).

وتاب من معاصيه» [١]، وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: فوِّض أمرك إليه، فإنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذىٰ لا يُغالب، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذىٰ لا يخذل أولياءه» [٢].

فهو سبحانه يقهر من يعصيك منهم، ومن غيرهم بعزته، وينصرك برحمته. وتقديم وصف العِزَّة؛ قيل: لأنَّه أوفق بمقام التَّسلِّي عن المشاقّ اللاحقة من القوم إليه ﷺ. وجُوِّز أن يكون ذلك؛ لأنَّ العِزَّة كالعِلَّة المُصحِّحة للتَّوكُّل، والرَّحمة كالعِلَّة الدَّاعية إليه[٣].

وعلَّق التَّوكَّل بالاسمين ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وما تبعهما من الوصف الموصول إشارة إلىٰ أنه بعزته قادر علىٰ تغلبه علىٰ عدوه الذي هو أقوىٰ منه، وأنه برحمته يعصمه منهم[٤]. والتَّوكُّل هو اعتماد القلب علىٰ الله تعالىٰ في جلب المنافع ودفع المضارِّ، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلبه، فإنَّه عزيزٌ رحيمٌ؛ بعزَّته يقدر علىٰ إيصال الخير، ودفع الشَّرِّ عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك[٥].

الموقف الثاني: التقوى جماع الخير

وفي شأن التَّقوىٰ يقول تعالىٰ لنبيِّه محمّد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾[الأحزاب: ١]، أي: «يا أيها الذي منَّ الله عليه بالنبوة، واختصّه بوحيه، وفضله علىٰ سائر الخلق، اشكر نعمة ربِّك عليك، باستعمال تقواه، التي أنت أولىٰ بها من غيرك، والتي يجب عليك منها، أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلِّغ رسالاته، وأدِّ إلىٰ عباده وحيه، وابذل النصيحة للخلق»[٦].

قال الألوسي: «ناداه -جل وعلا- بوصفه ﷺ، دون اسمه تعظيمًا له، وتفخيمًا»[٧].

«وأمره عليه السلام بالتقوىٰ تفخيمًا وتعظيمًا للتَّقوىٰ نفسها، حيث أمر بها مثله. فإنَّ مراتبها لا تنتهي. مع أنَّ المقصود الدّوام والثَّبات عليها» [٨].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٤١١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٤٤).
(٣) روح المعاني (١٩/ ١٣٦).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٧).
(٥) تيسر الكريم الرّحمن (٥٩٩).
(٦) تيسير الكريم الرّحمن (٦٥٧).
(٧) روح المعاني (٧/ ١٤٣).
(٨) محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٤٧).

واقتران الأمر بالتَّقوىٰ بوصف النُّبوة دليل علىٰ أنَّ الأمر جزءٌ من ذلك الوصف، وملازم له، فالتَّقوىٰ من النُّبوة التي أُرسِل بها ﷺ، وكُلِّف ببلاغها للنَّاس، وليست مجرد وصف شخصيٍّ له ﷺ، ولا شكَّ أنَّه هو أوَّل المؤمنين المخاطَبين بذلك، ولذا كان رسول الله ﷺ خيرَ قدوة في هذا الباب، كما قال ﷺ: «**أَمَا إِنِّي أَتْقَاكُم للهِ، وأَخْشَاكُمْ لَهُ**»(١).

فتقوىٰ الله والشُّعور برقابته، واستشعار جلاله هي القاعدة الأولىٰ، وهي الحارس القائم في أعماق الضَّمير علىٰ التَّشريع والتَّنفيذ. وهي التي يُناط بها كلّ تكليف في الإسلام وكلّ توجيه.

الموقف الثالث: عبادة التسبيح والحمد

أمر الله رسوله ﷺ بالتَّسبيح في أوقات ومواقف كثيرة تعظيمًا لله، يمكن إجمالها في النقاط التالية:

١- تعظيم الله تعالىٰ بالتسبيح:

قال تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾[الحاقة]، أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصّفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك، وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسىٰ، ويطاع فلا يعصىٰ(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾[الأعلىٰ].

قال السّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمر تعالىٰ بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحًا يليق بعظمة الله تعالىٰ، بأن تذكر أسماؤه الحسنىٰ العالية علىٰ كلّ اسم بمعناها الحسن العظيم»(٣). وقال: «ونزِّهه عمّا لا يليق بجلاله، وقدِّسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله»(٤).

والتَّسبيح هو التَّمجيد والتَّنزيه، واستحضار معاني الصّفات الحُسنىٰ لله، وليست هي مجرد ترديد لفظ. و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ تُطْلِق في الوجدان معنىٰ وحالة يصعب تحديدها

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١١٠٨).
(٢) تيسير الكريم الرّحمن (٩٢٠).
(٣) تيسير الكريم الرّحمن (٨٣٥).
(٤) تيسير الكريم الرّحمن (٨٨٤).

باللفظ، ولكنها تتذوق بالوجدان. وتوحي بالحياة مع الإشراقات المنبثقة من استحضار معاني الصّفات.

والصّفة الأولىٰ القريبة في هذا النَّصِّ هي: صفة الرّب، وصفة الأعلىٰ.

والرَّبُّ: المربِّي والرّاعي، وصفة الأعلىٰ تُطْلِق التَّطلع إلىٰ الآفاق التي لا تتناهىٰ؛ وتُطْلِق الرّوحَ لتُسبِّح وتسبَح إلىٰ غير مدىٰ. وتتناسق مع التَّمجيد والتَّنزيه، وهو في صميمه الشُّعور بصفة الأعلىٰ.

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ابتداءً، وهذا الأمر صادرٌ إليه من ربِّه بهذه الصّيغة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، وفيه من التَّلطُّف والإيناس ما يجلّ عن التَّعبير. وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الأمر، ثمّ يعقب عليه بالاستجابة المباشرة، قبل أن يمضي في آيات السّورة، يقول: سبحان ربي الأعلىٰ، فهو خطابٌ وردُّه، وأمرٌ وطاعتُه، وإيناسٌ ومجاوبتُه، يتلقَّىٰ مباشرةً ويستجيب.

عن عقبة بن عامر الجهنيِّ، قال: لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ قال لنا رسول الله ﷺ: «اِجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُم»، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؛ قال: «اِجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُم»[1].

فهذا التَّسبيح في الرّكوع والسّجود كلمة حيّة أُلحقت بالصّلاة، وهي دافئة بالحياة، لتكون استجابةً مباشرةً لأمر مباشر، أو بتعبير أدقّ: لإذن مباشر. فإذن الله لعباده بأن يحمدوه ويسبحوه إحدىٰ نِعمه عليهم، وأفضاله. إنَّه إذنٌ بالاتِّصال به سبحانه في صورة مُقرَّبة إلىٰ مدارك البشر المحدودة. صورة تفضَّل اللهُ عليهم بها ليعرِّفَهم ذاتَه في صفاته. في الحدود التي يملكون أن يتطلعوا إليها. وكلُّ إذن للعباد بالاتِّصال بالله في أيِّ صورة من صور الاتِّصال، هو مَكْرُمة له، وفضلٌ علىٰ العباد.

٢- التسبيح عند الكرب:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾[الحِجر].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٥٥؛ ١٧٤٥٠)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده يحتمل التحسين»، وأخرجه ابن ماجه: (كتاب إقامة الصّلاة والسّنن فيها، باب باب التسبيح في الرّكوع والسّجود: ٨٨٧)، وأبو داود (كتاب الصّلاة، باب ما يقول الرّجل في ركوعه وسجوده: ٨٦٩)، وضعَّفه الألباني في كليهما.

قال أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فافزع فيما نابك من أمر تكرهه منهم إلىٰ الشُّكر لله، والثّناء عليه، والصّلاة، يكفك الله من ذلك ما أهمّك»[(١)]، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصّلاة[(٢)]، أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصّلاة، فإن ذلك يوسِّع الصّدر، ويشرحه، ويعينك علىٰ أمورك[(٣)].

قال الرّازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكر أن قومه يسفهون عليه؛ قال له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾؛ لأنّ الجِبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك، فعند هذا قال له: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾، **فأمره: بالتَّسبيح والتَّحميد والسّجود**. واختلف الناس في أنه كيف صار الإقبال علىٰ هذه الطاعات سببًا لزوال ضيق القلب والحزن؟ فقال العارفون المحققون: إذا اشتغل الإنسان بهذه الأنواع من العبادات انكشفت له أضواء عالم الرّبوبية، ومتىٰ حصل ذلك صارت الدّنيا بالكلية حقيرة، وإذا صارت حقيرة خف علىٰ القلب فقدانها ووجدانها، فلا يستوحش من فقدانها، ولا يستريح بوجدانها، وعند ذلك يزول الحزن والغم»[(٤)].

٣- التسبيح عند النصر:

قال تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣].

فالتَّسبيح والحمد علىٰ ما أولاهم من مِنّة بأن جعلهم أمناء علىٰ دعوته، حُرَّاسًا لدينه. وعلىٰ ما أولىٰ البشرية كلّها من رحمة بنصره لدينه، وفتحه علىٰ رسوله، ودخول النَّاس أفواجًا في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمىٰ والضلال والخسران.

وقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان]، أي: اقرن بين حمده وتسبيحه[(٥)]؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**سبحانك اللهم رَبَّنا وبحمدك**»، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: **كان النَّبيّ ﷺ يقول في ركوعه**

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٥٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٥٣).
(٣) تيسير الكريم الرّحمن (٤٣٥).
(٤) مفاتيح الغيب للرازي (١٩/ ١٧١).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١١٩).

وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»(١). فأمرُه بالتّسبيح هو تنزيهُ اللهِ عمَّا لا يليق به، وأوّلُ ذلك الشِّركة في الإلهية، أي: إذا أهمَّك أمرً إعراض المشركين عن دعوة الإسلام؛ فعليك نفسَك، فنزِّه الله.

والباء في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للمصاحبة، أي: سبِّحه تسبيحًا مصاحِبًا للثَّناء عليه بما هو أهله. فقد جمع له في هذا الأمر التَّخلية والتَّحلية، مقدِّمًا التَّخلية؛ لأنَّ شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النَّقص(٢)، أي: نزِّهِ اللهَ تعالىٰ عمّا يصفه هؤلاء الكفَّار به من الشُّركاء» (٣). والجمع بين التَّسبيح والتَّحميد من أجل التَّطهير.

٤- التَّسبيح عند القيام من المجلس وللصَّلاة ومن النَّوم في اللَّيل:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور].

قال الضَّحاك: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: إلىٰ الصّلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالىٰ جَدُّك، ولا إله غيرك. وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من نومك من فراشك. ويتأيد هذا القول بما رواه عبادة بن الصّامت عن رسول الله ﷺ قال: «**من تعارَّ من الليل؛ فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كلّ شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، ثمّ قال: ربِّ اغفر لي -أو قال: ثمّ دعا- أُستجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثمّ صلّىٰ تُقُبِّلَتْ صلاتُه**»(٤).

قال: مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من كلِّ مجلس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيّ ﷺ أنه قال: «**مَن جلس في مجلس، فكثر فيه لغطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلَّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. إلَّا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (كتاب صفة الصّلاة، باب الدّعاة في الرّكوع: ٧٦١)، ومسلم (كتاب الصّلاة: ٤٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٨٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٢).

(٤) أخرجه البخاري (كتاب التهجد، باب فضل من تعارّ من الليل فصلىٰ: ١١٠٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٣٨-٤٤٠) باختصار.
والحديث أخرجه التّرمذيُّ (كتاب الدّعوات، باب ما يقال إذا قام من المجلس: ٣٤٣٣)، وصحَّحه الألباني في (صحيح وضعيف الترمذي).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ [الطور: ٤٩]، أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصّلاة في الليل[١]، أي: وفي أوقات الليل، وأدبار الصّلوات، فإنَّ ذكرَ الله تعالىٰ مُسَلٍ للنَّفس، مُؤنِسٌ لها، مُهَوِّنٌ للصَّبر[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾ [الإنسان: ٢٦].

التَّسبيح: التَّنزيه بالقول وبالاعتقاد. ويشمل الصّلوات والأقوال الطيبة، والتدبر في دلائل صفات الله وكمالاته، وغلب إطلاق مادة التَّسبيح علىٰ الصّلاة النافلة[٣].

٥-الأمر بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها:

قال تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمره -جلّ ثناؤه- في نوائبه بالفزع إلىٰ الصّبر والصّلاة»[٤].

فأمره الله بالصّبر علىٰ أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوَّض عن ذلك، ويستعين عليه بالتَّسبيح بحمد ربِّه في الأوقات الفاضلة، وهي: قبل طلوع الشّمس وغروبها، وفي أطراف النَّهار، أوّله وآخره، وفي أوقات اللّيل وساعاته، ﴿لَعَلَّكَ﴾، إن فعلت ذلك ﴿تَرۡضَىٰ﴾ بما يُعطيك ربُّك من الثَّواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقرّ عينُك بعبادة ربِّك، وتتسلَّىٰ بها عن أذيتهم، فيخفّ حينئذ عليك الصَّبر[٥]. فاشتغل عنهم بطاعة ربِّك وتسبيحه، أوَّل النَّهار وآخره، وفي أوقات اللَّيل، وأدبار الصّلوات. فإنَّ ذكر الله تعالىٰ مُسَلٍ للنَّفس، مُؤنِس لها، مُهَوِّن للصَّبر[٦].

يقول الله تعالىٰ لنبيِّه: اتَّجه إلىٰ ربِّك: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾، في هدأة الصّبح وهو يتنفس، ويتفتح بالحياة؛ وفي هدأة الغروب والشّمس تُوَدِّع، والكون يغمض أجفانه، وسبِّح بحمده فتراتٍ من اللَّيل والنَّهار. كن موصولًا بالله علىٰ مدار اليوم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٤٠).
(٢) تيسير الكريم الرّحمن (٨٠٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٧٦).
(٤) جامع البيان (١/ ١٤).
(٥) تيسير الكريم الرّحمن (٥١٦).
(٦) تيسير الكريم الرّحمن (٨٠٧).

﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ إنَّ التسبيح بحمد الله اتِّصال، والنَّفس التي تتصل تطمئن، وترضىٰ. ترضىٰ وهي في ذلك الجوار الرّضي؛ وتطمئن وهي في ذلك الحِمَىٰ الآمن، فالرِّضىٰ ثمرة التَّسبيح والعبادة، وهو وحده جزاءٌ حاضرٌ، يَنبت من داخل النَّفس، ويترعرع في حنايا القلب.

الموقف الرّابع: حسن التوكل

إنَّ كلَّ إنسان يحتاج إلىٰ التَّوكُّل علىٰ الله في جميع أموره، وخصوصًا الدّاعي إلىٰ الله تعالىٰ، فهو في حاجة للتَّوكُّل علىٰ الله في رزقه وفي دعوته، وفي المشكلات التي تواجهه، وفي الاستكبار والعناد الذي يواجهه، وفي تطبيق منهج الله في نفسه أوَّلًا، ثمّ في واقعه. ولذلك؛ نجد أنَّ من الأمور التي برزت في عناية الله تعالىٰ بنبيِّه ﷺ أن ربَّاه ربُّه علىٰ حُسن التَّوكُّل عليه، ويبرز هذا الجانب في النِّقاط التالية:

١-الاستدلال بوحدانية الله علىٰ الأمر بالتوكل:

قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ [المزَّمل: ٩].

قال الرّازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمَّا ثبت أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لزمك أن تتخذه وكيلًا، وأن تفوِّض كلَّ أمورك إليه. وهنا مقامٌ عظيمٌ، فإنَّه لمَّا كانت معرفة أنَّه لا إله إلَّا هو توجب تفويض كلّ الأمور إليه= دلّ هذا علىٰ أن من لا يُفوِّض كلَّ الأمور إليه؛ فإنَّه غير عالم بحقيقة لا إله إلَّا هو»(١). وقال السّعدي: «ﭼ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﭽ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلىٰ الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﭼ ﮆ ﮇ ﭽ أي: حافظا ومدبرا لأمورك كلها»(٢).

فهو ربُّ كلِّ متجه، ربّ المشرق والمغرب، وهو الواحد الأحد الذي لا إله إلَّا هو؛ والتَّوكُّل عليه هو التَّوكُّل علىٰ القوَّة الوحيدة في هذا الوجود. والاتِّكال علىٰ الله وحده هو الثَّمرة المباشرة للاعتقاد بوحدانيته، وهيمنته علىٰ المشرق والمغرب، أي: علىٰ الكون كله. والرّسول الذي يُنادىٰ: قُمْ. لينهض بعبئه الثَّقيل، في حاجة ابتداءً للتَّبتل لله، والاعتماد عليه دون سواه. فمن هنا؛ يستمدُّ القوَّةَ والزَّادَ للعبء الثَّقيل في الطَّريق الطَّويل.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٣٠/ ١٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرّحمن (٨٩٢).

٢- تثبيت الله نبيه علىٰ الحق بأمر بالتوكل:

قال تعالىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل].

قال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: اعتمد علىٰ ربك في جلب المصالح ودفع المضار وفي تبليغ الرّسالة وإقامة الدّين وجهاد الأعداء. ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الواضح. والذي علىٰ الحقِّ يدعو إليه، ويقوم بنصرته أحقُّ من غيره بالتَّوكُّل؛ فإنَّه يسعىٰ في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شكَّ فيه، ولا مرية. وأيضًا: فهو حقٌّ في غاية البيان، لا خفاء به، ولا اشتباه. وإذا قمتَ بما حُمِّلت، وتوكَّلت علىٰ الله في ذلك؛ فلا يضرّك ضلالُ من ضلَّ، وليس عليك هداهم» [(١)].

٣- التوكل علىٰ الله في كل أمر عزمت عليه:

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: فإذا صحَّ عزمك بتثبيتنا إياك، وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك؛ فامض لما أمرناك به علىٰ ما أمرناك به، وافق ذلك آراءَ أصحابك، وما أشاروا به عليك، أو خالفها ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فيما تأتي من أمورك وتدع، فثق به في كلِّ ذلك، وارضَ بقضائه في جميعه، دون آراء سائر خلقه، ومعونتهم[(٢)]، أي: فإذا عقدت قلبك علىٰ أمر بعد الاستشارة؛ فاجعلْ تفويضك فيه إلىٰ الله تعالىٰ، فإنَّه العالم بالأصلح لك، والأرشد لأمرك، لا يعلمه من أشار عليك[(٣)].

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: الرّاضون بقضائه، والمستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوىٰ أو خالفه[(٤)].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنَّ التَّوكُّل علامة صدق الإيمان، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته، واعتقاده الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، وهذا أدبٌ عظيم مع الخالق، يدلّ علىٰ محبة

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن (٩٠٦).
(٢) جامع البيان (٧/ ٣٤٦).
(٣) البحر المحيط (٣/ ٨٠).
(٤) جامع البيان (٧/ ٣٤٦).

العبد ربَّه، فلذلك أحبَّه الله»[١].

وقال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «حثَّ علىٰ التَّوكُّل علىٰ الله؛ إذ أخبر أنَّه يحبُّ من توكَّل عليه، والمرءُ ساعٍ فيما يحصل له محبةُ الله تعالىٰ»[٢].

٤- التَّوكُّل علىٰ الله في الحرب:

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ۞ ﴾ [الأنفال].

قال أبو بكر الجزائريُّ: «الله تعالىٰ يأمر رسوله وهو قائد الجهاد يومئذ بقبول السّلم متىٰ طلبها أعداؤه ومالوا إليها ورغبوا بصدق فيها، لأنه ﷺ رسول رحمة لا رسول عذاب، وأمره أن يتوكَّل علىٰ الله في ذلك، أي: يطيعه في قبول السّلم، ويفوّض أمره إليه، ويعتمد عليه، فإنَّه تعالىٰ يكفيه شرّ أعدائه؛ لأنَّه سميعٌ لأقوالهم، عليمٌ بأفعالهم وأحوالهم، لا يخفىٰ عليه من أمرهم شيءٌ، فلذا سوف يكفي رسوله شرَّ خِداعهم إن أرادوا خِداعه بطلب السِّلم والمسالمة»[٣].

٥- التَّوكُّل علىٰ الله في العبادة:

قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

قال السّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به ممّا تقدر عليه، وتوكَّل علىٰ الله في ذلك»[٤].

وقال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: امتثل ما أُمِرْتَ به، وداوِم علىٰ الدّعوة والتَّبليغ، وتوكَّل عليه في ذلك»[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٧١).
(٢) البحر المحيط (٣/ ٨١).
(٣) أيسر التفاسير ٢/ ٣٢٤.
(٤) تيسير الكريم الرّحمن (٣٩٢).
(٥) روح المعاني (١٢/ ١٦٨).

الموقف الخامس: حسن الخلق

ثبت تربية الله لنبيِّه ﷺ علىٰ حسن الخلق عمومًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

قال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو الإسلام الذي دعا إليه القرآن لا بالبلاء ينحرف، ولا بالعطاء ينصرف، لأن خلقه القرآن، فلا يتحرك ولا يسكن إلا بأمره ونهيه، فهذا الخلق نتيجة الهدىٰ والهدىٰ نتيجة العقل، وهو سبب السّعادة، فأفهم ذلك عدم سعادتهم لعدم عقولهم. كان متخلقًا بأخلاق الله تعالىٰ والتخلق بأخلاقه أن ينزه علمه عن الجهل وجوده عن البخل وعدله عن الظلم وحلمه عن السّفه. والخلق الحسن تارة مع الله، وتارة مع حكم الله، وتارة مع الخلق، فمع الله بالتعظيم والإجلال، ومع حُكْمِه: بالصّبر في الضراء والبأساء، والشكر في الرّخاء، والامتثال للأوامر، والانزجار عن النواهي؛ عن طيب قلب مسارعة وسماحة. وحسن الخلق مع الخلق: بثُّ النَّصَفَة في المعاملة، وحسن المجاملة في العشرة. ولمّا كان الإسلام أشرف الأديان؛ أعطاه الله تعالىٰ أقوىٰ الأخلاق وأشرفها وهو الحياء كما رُوي أنّ لكلِّ دين خُلُقًا، وخلق الإسلام: الحياء. ومن الحياء حياة القلب، فكان ﷺ يأخذ العفوَ، ويأمر بالعُرف، ويُعْرِض عن الجاهلين، ولا يَجزي بالسّيئة السّيئة؛ لكن يعفو ويصفح ويُحسن»[(١)].

الموقف السّادس: رفعُ ذكر النَّبيِّ ﷺ خصوصًا والأنبياء عمومًا

اختص الله الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- بالاصطفاء علىٰ البشر، ورفعة ذكرهم في العالمين، وتعظيمهم من تعظيم الله -عزّ وجلّ-، قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشَّرح٤]، أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله -عزّ وجلّ- غالبًا إلَّا ويذكر معه رسولُه ﷺ، كما في شهادة الدّخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلىٰ الله بها ذكرَ رسوله محمَّد ﷺ. وله في قلوب أمَّته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالىٰ، فجزاه الله عن أمَّته أفضلَ ما جازىٰ نبيًا عن أمَّته[(٢)].

---

(١) نظم الدّرر (٢٠/ ٢٩٢).

(٢) تيسير الكريم الرّحمن (٩٢٩)، بتصرف.

ومن صور ذلك النقاط التالية:

أوَّلًا: حسن الاصطفاء والاختيار:

قال تعالىٰ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف].

فإنَّ الله يعلم مَن يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودلَّ هذا علىٰ أنَّ هؤلاء اختارهم لِما علم من أحوالهم الموجبة لذلك، فضلًا منه وكرمًا. ومن الفائدة والحكمة في قَصِّه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبَّهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفِّقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم، وعدم اتِّصافنا بأوصافهم، ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضًا من لطفه بهم، وإظهاره الثَّناء عليهم في الأوَّلين والآخرين، والتَّنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه، وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشَّرف إلَّا أنَّ أذكارهم مُخَلَّدة، ومناقبهم مؤبَّدة لكفىٰ بذلك فضلًا[1].

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله -عزّ وجلّ- اصطفىٰ من ولد إبراهيم إسماعيلَ، واصطفىٰ من بني إسماعيل كنانةَ، واصطفىٰ من بني كنانة قريشًا، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا سيِّد ولد آدم ولا فخر، وأوَّل من تنشق عنه الأرض، وأوَّل شافع، وأوَّل مُشفَّع**»[2].

وظهر هذا من خلال حادثة الفيل وما فيها من توطئة لبعثة النَّبيّ ﷺ، قال الماوردي رحمه الله: «وآية الرّسول في قصة الفيل: أنَّه كان في زمانه حَمْلًا في بطن أمِّه بمكة؛ لأنَّه وُلِد بعد خمسين يومًا من الفيل، وبعد موت أبيه في يوم الإثنين الثَّاني عشر من شهر ربيع الأوَّل، فكانت آيةً في

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن ص١٢٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٠٧ح (١٧٠٨) قال شعيب الأرنؤوط: صحيح دون قوله: ((اصطفىٰ من ولد إبراهيم إسماعيل)) فقد تفرد محمد بن مصعب -وهو القرقساني- وهو ضعيف يعتبر به في المتابعات والشواهد، وهو عند مسلم برقم (٢٢٧٦).

ذلك من وجهين: **أحدهما**: أنّهم لو ظفروا لسَبَوا واسترقوا، فأهلكهم الله تعالىٰ لصِيانة رسوله ﷺ أن يجري عليه السَّبي حملًا ووليدًا. **والثاني**: أنَّه لم يكن لقريش من التَّأَلُّه ما يستحقون به رفعَ أصحاب الفيل عنهم، لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متديِّن وثن، أو قائل بالزَّندقة، أو مانع من الرّجعة. ولكن لمَّا أراد الله تعالىٰ من ظهور الإسلام، تأسيًا للنبوة، وتعظيمًا للكعبة. ولمّا انتشر في العرب ما صنع الله تعالىٰ في جيش الفيل تهيَّبوا الحرمَ وأعظموه، وزادت حرمتُه في النُّفوس، ودانت لقريش بالطَّاعة، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، وكفاهم كيدَ عدوِّهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريشٌ لهم بالرّفادة والسّدانة والسّقاية. والرِّفادة مالٌ تخرجه قريشٌ في كلِّ عام من أموالهم يصنعون به طعامًا للنَّاس أيَّام منىٰ، فصاروا أئمة ديّانين، وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلًا في الغابرين»[(١)].

ثانيًا: تعظيم الله أمر أذية الرّسول ﷺ أو أزواجه بأذىٰ أو همّ به:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وفي هذا إشارة إلىٰ ما ذكر من إيذائه ﷺ ونكاح أزواجه من بعده، وما فيه من معنىٰ البُعد؛ للإيذان ببعد منزلته في الشر والفساد، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه -عزّ وجلّ-، ﴿عَظِيمًا﴾ أي: أمرًا عظيمًا، وخطبًا هائلًا لا يقادر قدره. وفيه من تعظيمه تعالىٰ لشأن رسوله ﷺ، وإيجاب حرمته حيًّا وميتًا ما لا يخفىٰ[(٢)]. وقد تضمن ذلك الوعيد لمن تعرض لرسول الله ﷺ أو أزواجه بأذًىٰ أو همّ به، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء[(٣)]، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: ليس علىٰ النَّفي، وإنَّما هو علىٰ **التَّحريم والنَّهي**[(٤)].

وهذا النَّهيُّ عامٌّ في كلّ ما يتأذَّىٰ به[(٥)]، وزواج أزواجه من بعده من جملة ما يؤذيه، فإنَّه ﷺ له مقام التَّعظيم، والرِّفعة والإكرام، وتزوُّجُ زوجاته من بعده مُخِلٌّ بهذا المقام[(٦)].

---

(١) أعلام النبوة للماوردي (ص١٨٥-١٨٩).
(٢) روح المعاني (١٦/ ٢٠٠).
(٣) معالم التنزيل (٦/ ٦٧١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٣١١).
(٥) البحر المحيط (٩/ ١٧١).
(٦) تيسير الكريم الرّحمن (٦٧٠).

ثالثًا: مضاعفة الأجور لأهل بيته، ومضاعفة المؤاخذة لهم:

قال تعالىٰ عن أجر زوجات النَّبيِّ ﷺ: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب].

ذكر الله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنَّ مَن قنت من نساء نبيِّه ﷺ لله ولرسوله، وعمل عملًا صالحًا أنَّ الله -جل وعلا- يؤتها أجرها مرَّتين. والقنوت: الطاعة.

وما وعد الله به -جلّ وعلا- من أطاع منهن بإيتائها أجرها مرَّتين في هذه الآية الكريمة، جاء الوعد بنظيره لغيرهن في غير هذا الموضع، فمن ذلك وعده لمن آمن من أهل الكتاب بنبيِّه، ثمّ آمن بمحمّد ﷺ بإيتائه أجره مرَّتين، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص][1].

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعنىٰ أعطاهنَّ الله بذلك ثوابًا متكاثر الكيفية والكمية في الدّنيا والآخرة، وذلك بيِّنٌ في قوله: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، وزيادةُ رزقٍ كريمٍ معدٌّ لهن. أمَّا ثوابهن في الآخرة فكونهن مع النَّبيِّ ﷺ في درجته في الجنَّة، ولا غاية بعدها، ولا مَزِيَّة فوقها، وفي ذلك من زيادة النَّعيم والثَّواب علىٰ غيرهنَّ؛ فإنَّ الثَّواب والنَّعيم علىٰ قدر المنزلة[2].

وقال عن مؤاخذتهن: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠]، ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ في الدّنيا والآخرة، أي: أن يجعل عذاب من يأتي من نساء النَّبيِّ ﷺ بفاحشة مبيِّنة في الدّنيا والآخرة مثلَي عذاب سائر النِّساء غيرهنّ»[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سهلًا، لا يمنعه -جلّ شأنه- عنه كونهن نساء النَّبيّ ﷺ، بل هو سبب له[4].

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٢٣٥).
(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٥٦٥).
(٣) جامع البيان (١٩/ ٩١).
(٤) روح المعاني (٢١/ ١٨٤).

واختار الله سبحانه وتعالىٰ نساء رسول الله ﷺ في الخطاب تكرمةً لهنّ وتعظيمًا لحقهنّ، وقد عصمهنّ الله عن ذلك وبرأهنّ وطهرهنّ[١].

ومن هذه الآية نعلم أنَّ العقوبة تجب علىٰ قدر النِّعمة، ألا ترىٰ أنَّ الله تعالىٰ قال لأزواج النَّبيِّ ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾، فلمَّا كانت نعمتهن أكثرَ؛ جعل عقوبتهنَّ أشدّ[٢].

هذه آداب أمر الله تعالىٰ بها نساء النَّبيّ ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال مخاطبًا لنساء النَّبيّ ﷺ بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن، فإنَّه لا يشبههن أحدٌ من النِّساء، ولا يلحقهنّ في الفضيلة والمنزلة[٣]. وأيضًا: تعظيم الذَّنب علىٰ من يَقتدي بهم الناس؛ فنساء النَّبيِّ ﷺ هنَّ قدوة لنساء العالمين، فيجب أن يتصفن بأحسن الصّفات، ويبتعدن عن كلِّ الصّفات والأعمال غير اللائقة بهنّ؛ لأنّ النساء لهنّ تبعٌ.

رابعًا: رفع ذكر النَّبيّ ﷺ:

قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشَّرح: ٤]؛ أي: أعْلَينا قدرَك، وجعلنا لك الثّناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحدٌ من الخلق، فلا يُذكر الله -عزّ وجلّ- غالبًا، إلَّا ويُذكر معه رسوله ﷺ، كما في شهادة الدّخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلىٰ الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ. وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره بعد الله تعالىٰ، فجزاه الله عن أمّته أفضل ما جازىٰ نبيًا عن أمته[٤].

ورفعُ الذِّكر يكون بإلهام النَّاس لأن يذكروه بخير، وذلك بإيجاد أسباب تلك السّمعة حتىٰ يتحدث بها الناس. واستُعير الرّفع لحسن الذِّكر؛ لأنَّ الرّفعَ جَعْلُ الشيء عاليًا لا تناله جميع الأيدي، ولا تدوسه الأرجل. فقد فُطِر ﷺ علىٰ مكارم أخلاقٍ يَعِزُّ وجود نوعها، ولم يبلغ أحدٌ شأوَ ما بلغه منها، حتىٰ لُقِّب في قومه بالأمين[٥].

ورفعُ الذِّكر نعمةٌ علىٰ الرّسول ﷺ، وكذلك جميلٌ حسنٌ للقائمين بأمور النّاس، وخمول الذِّكر والاسم حسنٌ للمنفردين للعبادة[٦].

---

(١) فتح الباري (٤/ ٢٦٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٤٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٠٨).
(٤) تيسير الكريم الرّحمن (٩٢٩) بتصرف.
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٢).
(٦) المحرر الوجيز (١٥/ ٤٩٨).

ومن **مظاهر رفع ذكره** ﷺ:

١- الصّلاة علىٰ الرّسول ﷺ في المواطن التي يُشرع فيها رِفعة لشأنه، وتذكيرًا بفضله.

٢- وجوب احترام صحابته رضي الله عنهم.

٣- وجوب احترام أزواجه وأهل بيته رضي الله عنهم.

٤- وجوب العمل بكلِّ ما روي عنه، والدّفاع عنه، وعن سنته، فذلك برهانٌ علىٰ صدق محبة الله تعالىٰ ومحبة رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[آل عمران].

٥- وجوب احترام أهل العلم وورثته ﷺ المبلِّغون عنه(١).

٦- عدم الإسراع بقول أو فعل قبل أن يقول فيه الله تعالىٰ أو رسول الله ﷺ: قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾[الحُجرات: ١]. إشارةً إلىٰ احترام رسول الله، وعدم تقديم قول أحدٍ علىٰ قوله، وعدم إصدار الأحكام قبل معرفة قول رسول الله ﷺ فيها.

٧- التَّأدُّب مع رسول الله ﷺ في الاستماع والإنصات: قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾[الحُجرات: ٢]، قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: «حرمة النَّبيّ ميتًا كحرمته حيًّا، وكلامه المأثور بعد موته في الرِّفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب علىٰ كلّ حاضر ألَّا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به»(٢).

٨- لا يخاطب الرّسول ﷺ باسمه وكنيته، كما يخاطب النَّاس بعضُهم بعضًا؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحُجرات: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور: ٦٣].

---

(١) للاستزادة حول الموضوع يمكن مراجعة بحث تفسير سورة الأحزاب دراسة موضوعية للمؤلف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٠٧).

٩- وجوب محبّة الرّسول ﷺ: وهذا من أعظم رفع الذِّكر مع رسول الله ﷺ، حيثُ إنَّه المبلِّغ عن الله تعالىٰ، فهو أعظم الخلق إحسانًا إلىٰ المرء، فهو الذي أرشدنا إلىٰ الصّراط المستقيم، طريق الجنة قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورىٰ][1].

خامسًا: ردُّ الله تعالىٰ أذية الكفار للنَّبيِّ ﷺ في عدد من المواقف، ومنها:

١- **فعندما اتهموه بالشِّعر والكِهانة؛ ردَّ الله عليهم** بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة].

فقد نزَّه الله رسوله عمَّا رماه به أعداؤه، من أنَّه شاعرٌ أو ساحرٌ. وأنَّ الذي حملهم علىٰ ذلك عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكَّروا، لعلموا ما ينفعهم ويضرّهم، ومن ذلك: أن ينظروا في حال محمّد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمرًا مثل الشَّمس يدلّهم علىٰ أنَّه رسول الله حقًّا، وأنَّ ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قولَ البشر، بل هو كلامٌ دالٌّ علىٰ عظمة من تكلَّم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده، وأيضًا: فإنَّ هذا ظنٌّ منهم بما لا يليق بالله، وحكمته[2].

٢- **وعندما قالوا عنه أنَّه هو من أتىٰ بالقرآن من عند نفسه؛ ردَّ الله عليهم**، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان].

أي: وقال الكافرون بالله الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرّسول: إنَّ هذا القرآن كذبٌ كذبه محمّد، وإفكٌ افتراه علىٰ الله، وأعانه علىٰ ذلك قومٌ آخرون. فردَّ اللهُ عليهم ذلك بأنّ هذا مكابرة منهم، وإقدامٌ علىٰ الظُّلم والزُّور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشدّ النَّاس معرفة بحالة الرّسول ﷺ وكمال صدقه وأمانته وبرِّه التَّامّ، وأنَّه لا يمكنه -لا

---

(١) للاستزادة حول الموضوع يمكن مراجعة بحث (بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب) للمؤلف، مبحث: حقوق مع النبي ﷺ.

(٢) تيسير الكريم الرّحمن (٨٨٤).

هو ولا سائر الخلق- أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجلّ الكلام، وأعلاه. وأنَّه لم يجتمع بأحد يعينه علىٰ ذلك، فقد جاءوا بهذا القول ظلمًا وزورًا.

ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمّد ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ أي: هذا قصص الأوَّلين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كلُّ أحدٍ، استنسخها محمَّدٌ ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾، وهذا القول منهم فيه عدِّة عظائم:

- منها: رميُّهم الرّسول الذي هو أبرُّ الناس وأصدُقهم بالكذب والجرأة العظيمة.
- ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجلُّه بأنَّه كذب وافتراء.
- ومنها: أنَّ في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق النَّاقص من كلّ وجه للخالق الكامل من كلّ وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.
- ومنها: أن الرّسول قد عُلِمت حالتُه، وهم أشدّ النَّاس علمًا بها، أنَّه لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب له، وقد زعموا ذلك.

فلذلك ردَّ عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: أنزله من أحاط علمُه بما في السّماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة والجهر والسّر. ووجه إقامة الحجّة عليهم أنَّ الذي أنزله، هو المحيط علمُه بكلّ شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوقٌ، ويتقوَّل عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحلّ دماءَ من خالفه وأموالهم، ويزعم أنَّ الله قال له ذلك. والله يعلم كلَّ شيء، ومع ذلك فهو يؤيِّده وينصره علىٰ أعدائه، ويمكِّنه من رقابهم وبلادهم، فلا يُمَكِّن أحدًا أن ينكر هذا القرآن، إلَّا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفةٌ من بني آدم سوىٰ الفلاسفة الدّهرية[1].

(١) تيسير الكريم الرّحمن (٥٧٨) باختصار.

٣- **وعندما أنكروا أن يكون الله أرسل نبيًّا من البشر، ولم يكن ملَكًا ولا صاحب مال، واتَّهموه بأنَّه ساحر بقولهم:** ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان].

فرد الله عليهم بقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان]. فهذا من مقالة المكَّذِبين للرَّسول، الذين قدحوا بها في رسالته، وهو أنَّهم اعترضوا بأنه هلَّا كان مَلَكًا أو مليكًا، أو يساعده مَلَك، أو يكون ذا مال مجموع من غير تعب ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرِّزق. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ هذا؛ وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن.

ولمّا كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جدًّا؛ قال تعالىٰ: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: وهي: أنَّه هلَّا كان مَلَكًا، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه مَلَك لأنَّه غير قادر علىٰ ما قال. أو أُنزل عليه كنز، أو جُعلت له جنّةٌ تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان مسحورًا ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾. قالوا أقوالًا متناقضة، كلّها جهلٌ وضلالٌ وسَفَهٌ، ليس في شيء منها هِداية، بل ولا في شيء منها أدنىٰ شُبهة تقدح في الرّسالة، فبمجرد النَّظر إليها، وتصوّرها= يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردِّها، ولهذا أمر تعالىٰ بالنَّظر إليها، وتدبرها، والنظر: هل توجب التَّوقُّف عن الجزم للرَّسول بالرّسالة والصّدق؟ ولهذا أخبر أنَّه قادرٌ علىٰ أن يعطيك خيرًا كثيرًا في الدّنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾[(١)].

٤- **وممَّا اتَّهمه المنافقون أنَّه يقبل كلّ ما يقال له، لا يُميِّز بين صادق وكاذب،** كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[التوبة: ٦١].

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: ٦١]، أي: يقبل من قال له خيرًا وصدقًا، وأمّا

(١) المصدر السّابق باختصار.

إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب، فَلِسَعة خُلُقه، وعدم اهتمامه بشأنهم. وأمَّا حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يعلم الصّادق من الكاذب، وإن كان كثيرًا ما يُعرض عن الذين يعرف كذبَهم وعدمَ صدقهم، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾، فإنّهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون. وأمَّا غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرّحمة بل ردُّوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بالقول أو الفعل، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدّنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنَّه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه[1].

(١) تيسير الكريم الرّحمن (٣٤٢)، باختصار.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام علىٰ المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد؛ فالشُّكر لله علىٰ هذا التَّطواف الموجز علىٰ قصص الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- في القرآن، بُغية البحث عن مواقف تعظيم الله فيها، واستلهام هدايات القرآن منها: فوجدت بحرًا لا تُرىٰ سواحله، ولا أطيق بلوغ شطآنه، فآثرت الاختصار بالوقوف علىٰ ست محطات، تأملت خلالها ثلاثةً وثلاثين موقفًا -من غير استقصاء ولا ترتيب- كلّها تدلّ علىٰ:

- **تعظيم الله لشأن أنبيائه، وتعظيم الأنبياء لربهم العظيم** جلّ جلاله، وأنه لا يقوم إيمانٌ بلا تعظيم.
- أن دعوة الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- دعوة واحدة، من لدن آدم عليه السلام إلىٰ محمد ﷺ؛ كما يقول الرّسول ﷺ: «**والأنبياء إخوة لعلاَّت أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد**»(١)، وأنهم اتفقوا علىٰ تعظيم الله قولًا وسلوكًا.
- أن هذه الوحدة بين الأنبياء عليهم السلام عمومًا -وفي تعظيم الله خصوصًا- تستدعي من الأمة **الاقتداء والتّأسي بها فيما بينهم، تعظيمًا لله خالقهم، ودرءًا للفرقة والخلاف**، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢].
- أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يقتدي بمنهج الأنبياء، وأن يقتفي أثرهم، وأن يسير علىٰ سنتهم، **والخطاب للنَّبيِّ ﷺ خطابٌ لأمَّته من بعده إلىٰ قيام السّاعة**.
- لا تكاد تقرأ جزءًا من القرآن الكريم إلَّا وتجد قصَّة نبيٍّ من الأنبياء، أو الإشارة إليه، وإلىٰ ما جرىٰ بينه وبين قومه. وذلك دعوةٌ لمن يقرءون القرآن عامّة وللمسلمين خاصّة إلىٰ أن **يسيروا وفق منهج الأنبياء، وأن يرتسموا معالمه، ويسلكوا خطاه**.
- أهمية الحديث عن سير الأنبياء وقصصهم في القرآن، عرضًا وتحليلًا وتأصيلًا لمنهج تعظيم الله تعالىٰ وتوحيده، والدّعوة إلىٰ دينه، **فالبحوث في مجال تعظيم الله، ومجال استلهام هداياتها بحاجة لمزيد عناية وتركيز**.
- أنّ **من أسس الإيمان بالله: أن يمتلأ القلب تعظيمًا لله وإجلالًا له**، فيعلم أن له الأسماء الحسنىٰ والصّفات العلىٰ، فهو العليم بخلقه لا تخفىٰ عليه خافية، يحصي ويبدي ويعيد، فتكون حركاته وسكناته لله.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم]: ٣٤٤٣)، واللفظ له، ومسلم (كتاب الفضائل، باب فضائل عيسىٰ عليه السلام: ٢٣٦٥).

- **لم يقدُر الله -جلّ وعلا- حقَّ قدره من هان عليه أمرَه فعصاه،** ونهيَه فارتكبه، وحقَّه فضيعه، وذكرَه فأهمله، وغفل قلبُه عنه، وكان هواه آثرَ عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق عنده أولىٰ من طاعة الله! فقد كان نصيبهم المقت والهلاك في قصص الأنبياء- يحذِّرنا الله ما صنعوا.
- لا بد أن يكون في القلب تعظيمٌ لربِّ العِزَّة والجلال، لا بدَّ أن يكون هناك علمٌ بالله -جلّ وعلا-، وهذا ينجم عن **تدبر القرآن وتلاوة آياته بقلبٍ خاشع مقبلٍ علىٰ ربه وسمعٍ حاضر**؛ فإذا تذكَّر ما لله من صفات الجلال والجمال والكمال؛ زاد حُبًّا لربِّه تبارك وتعالىٰ، ومن جمع حبِّ الله، والخوف منه، والرّجاء فيما عنده وفق إلىٰ صراط مستقيم.
- **رسل الله -عليهم الصّلاة والسّلام- رحمةٌ للعالمين**: للبَرِّ منهم والفاجر، فمن آمن به تمَّت له الرّحمة في الدّنيا والآخرة، ومن كفر به كانت له العقوبة في الآخرة، وينال منها في دنياه كذلك.

أسأل الله لي ولكم التوفيق والسّداد، إن ربي لسميع الدّعاء، وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- أحكام القرآن، محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق: علىٰ بن محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

٢- أضواء البيان، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥مـ.

٣- أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولىٰ، ١٩٨٧م.

٤- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري: جابر بن موسىٰ بن عبد القادر بن جابر، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السّعودية، ط٥، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٥- البحر المحيط، محمد بن يوسف أبىٰ حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت ط٢ (١٤٠٣هـ).

٦- بحوث في قصص القرآن: عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني،دط، دت.

٧- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدّمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣ (١٤٠٧هـ).

٨- بغية الطلاب من موضوعات سورة الأحزاب، دراسة موضوعية– د.محمد بن عبدالعزيز العواجي، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة ط١ (١٤٣٠هـ).

٩- التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدّار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٠- تفسير ابن باديس (في مجالسّ التذكير من كلام الحكيم الخبير)، عبد الحميد محمد بن باديس الصّنهاجي، علق عليه: أحمد شمس الدّين، نشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط: الأولىٰ، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١١- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق سامي بن محمد السّلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١ (١٤١٨هـ، ١٩٩٧مـ).

١٢- تفسير القرآن العظيم، عبد الرّحمن بن أبي حاتم الرّازي، تحقيق: أسعد محمد

الطيب، مكتبة نزار مصطفي الباز، مكة المكرمة، ط١ (١٤١٧هـ).

١٣- التفسير الكبير (تفسير الفخر الرّازي المشتهر بمفاتيح الغيب)، فخر الدّين محمد بن عمر الرّازي، دار الفكر، بيروت، ط٣ (١٤٠٥هـ).

١٤- تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي، تحقيق: د. عبد الرّحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط١ (١٤١٦هـ، ١٩٩٦م).

١٥- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدّعوة والإرشاد، السّعودية، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٦- جامع البيان عن تفسير آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق د.عبد الله بن عبدالمحسن التركي، مركز البحوث والدّراسات الإسلامية، القاهرة، ط١ (١٤٢٢هـ ٢٠٠١مـ).

١٧- جامع الترمذي، محمد بن عيسىٰ الترمذي، بيت الأفكار الدّولية للنشر والتوزيع، الرّياض، (١٤١٩هـ١٩٨٩م)، اعتناء فريق بيت الأفكار الدّولية.

١٨- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي.

١٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، شهاب الدّين محمود الألوسي البغدادي، دار الفكر، بيروت، ط ١٤٠٣هـ.

٢٠- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، بيت الأفكار الدّولية للنشر والتوزيع–الرّياض، (١٤١٩هـ١٩٨٩م)، اعتناء فريق بيت الأفكار الدّولية.

٢١- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السّجستاني، بيت الأفكار الدّولية للنشر والتوزيع–الرّياض، (١٤١٩هـ١٩٨٩م)، اعتناء فريق بيت الأفكار الدّولية.

٢٢- صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفىٰ البغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ.

٢٣- صحيح سنن ابن ماجه: ناصر الدّين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرّياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٤- صحيح سنن أبي داود: ناصر الدّين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرّياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٥- صحيح سنن الترمذي: ناصر الدّين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرّياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٦- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، ت ٢٦١ ه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥.

٢٧- ضعيف سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدّين الألباني، تعليق وفهرسة زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١ (١٤٠٨هـ، ١٩٨٨مـ).

٢٨- ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدّين الألباني، تعليق وفهرسة زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١ (١٤٠٨هـ، ١٩٨٨مـ).

٢٩- العظمة، لأبي الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، نشر: دار العاصمة، الرّياض، ط الأولىٰ، ١٤٠٨هـ.

٣٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدّين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الرّيان للتراث، ١٤٠٧هـ.

٣١- فتحُ البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان الحسيني القِنَّوجي، راجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، نشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا، بَيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٣٢- الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان للإمام شمس الدّين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية)، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م.

٣٣- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، ط: السّنة المحمدية، القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

٣٤- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، علاء الدّين ابراهيم البغدادي الخازن: المكتبة التجارية الكبرىٰ، القاهرة.

٣٥- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط١.

٣٦- محاسن التأويل، محمد جمال الدّين بن محمد سعيد القاسمي، ت: محمد باسل عيون السّود، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولىٰ، ١٤١٨هـ.

٣٧- المحرر الوجيز في الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية الأندلسي، مؤسسة دار العلوم، الدّوحة، ط١ (١٣٩٨هـ، ١٩٧٧مـ).

٣٨- مدارج السّالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣، ١٩٧٣.

٣٩- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مذيل بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

٤٠- معالم التنزيل معالم التنزيل، أبومحمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرّياض – ط٤ (١٤١٧هـ ١٩٩٧م).

٤١- مفردات ألفاظ القرآن، الرّاغب الأصفهاني، تحقيق:صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ودار الشامية، بيروت، ط١ (١٤١٢هـ ١٩٩٢م).

٤٢- نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، بهاء الدّين إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢ (١٤١٣هـ).

٤٣- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود/ وآخرون، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولىٰ، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

فهرس الموضوعات

المقدمة	٢
تمهيد	٧
المبحث الأول: مواقف من تعظيم الله في قصص آدم ونوح وهودٍ عليهم السلام وهداياتها	١٢
المبحث الثاني: مواقف من تعظيم الله في قصص إبراهيم عليه السلام وهداياتها:	١٨
المبحث الثالث: مواقف من تعظيم الله في قصة لوط عليه السلام مع قومه وهداياتها:	٢٢
المبحث الرّابع: مواقف من تعظيم الله في قصص يعقوب ويوسف عليهما الصّلاة والسّلام وهداياتها:	٢٦
المبحث الخامس: مواقف من تعظيم الله في قصص موسىٰ وهارون عليهما الصّلاة والسّلام وهداياتها:	٣٠
المبحث السّادس: مواقف من تعظيم الله في قصص خاتم الأنبياء محمد ﷺ وهداياتها:	٣٢
الخاتمة	٥٣
المصادر المراجع	٥٥
فهرس الموضوعات	٥٩